www.kotobarabia.com

الأمير

تأليف
مكيافيللي

تعريب ودراسة وتقديم
خليل حنا تدرس

www.kotobarabia.com

الأميـــــر

تأليف

مكيافيللي

تعريب ودراسة وتقديم

خليل حنا تادرس

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

من أقوال مكيافيللي المشهورة..... - ٦ -
مقدمة ..... - ٨ -
الأمير..... - ١١ -
كتاب لكل العصور ..... - ١١ -
نشأة مكيافيللي..... - ١٧ -
مؤلفات مكيافيللي..... - ٢١ -
ولز.. ومكيافيللي ..... - ٢٢ -
الأمير والمطاردات ..... - ٢٤ -
نصيحة..... - ٢٦ -
لعبة الحظ في مصير الدول..... - ٢٨ -
آراء مكيافيللي والفلاسفة..... - ٣١ -
مكيافيللي الفيلسوف..... - ٦٣ -
تأملات..... - ٨٧ -
أثمن هدية..... - ٩٦ -
عبرة من الماضي ..... - ٩٨ -
تستطيع أن تملك كل شيء.. بالحكمة.. والحب ..... - ١٠٠ -
قد لا يكون النصر سهلاً ولكن من الصعب الاحتفاظ به.... - ١١٣ -
إن الحرية لن تنال.. إلا بسفك الدماء..... - ١١٩ -
وتشبهوا بنهاية سيرتهم ..... - ١٢١ -

وكانت النهاية الموت.. والخلود..... - ١٢٧ -
الصعود إلى العرش على سلم النذالة والإجرام..... - ١٣٥ -
كن صديقا لهم.. تكون سيدا عليهم!! ..... - ١٤١ -
أقول للأمير الجبان: لا تكن قطة حتى لا تفترسك الكلاب المسعورة....
..... - ١٤٥ -
كن شجاعا.. مستعدا لمواجهة عدوك كي لا تهتز صورتك في عيون
شعبك..... - ١٤٨ -
لا يحك لك ظهرك.. سوى ظفرك..... - ١٥٢ -
يضع سره في أضعف خلقه.. وهكذا انتصر الفتى الصغير.. داود على
جليات الجبار..... - ١٥٨ -
إن غذاء العقل أعظم بكثير من غذاء البطن..... - ١٦٣ -
إن ممارسة الفضائل تجنب الفضائح..... - ١٦٦ -
من الأفضل أن تكون بخيلاً، من أن تكون لصا حقيرا.مكروها . - ١٦٨
ازرع الرحمة.. تحصد الحب..... - ١٧١ -
كن ثعلبا لتميز الفخاخ – وأسدا لترهب الذئاب..... - ١٧٥ -
الحب، والكراهية.. عملة ذات وجهين..... - ١٨٠ -
إن قلوب شعبك هي القلعة التي تشيدها وتحميك من غدر الأعداء.....
..... - ١٨٨ -
كي تكتسب الشهرة، عليك أن تعمل أعمالاً مجيدة تخلد بها ذكراك
.... - ١٩٢ -

إن الأنانية هي الصعود إلى الهاوية أما الوصول إلى القمة هو تحقيق المبادئ السامية وخدمة الوطن بإخلاص..... - ١٩٦ -
النفاق.. خديعة شيطانية سرعان ما تشرق عليها شمس الحقيقة فتكشفها وتعريها ..... - ١٩٩ -
عشْ بطلاً ولا تموت جبانًا..... - ٢٠٣ -
الفضاء.. هو تلك القوة الهائلة التي تقودنا إلى قدرنا المحتوم - ٢٠٦ -
وسوف تشرق الشمس وترسل أشعتها الذهبية فتضيء إيطاليا بعد ظلام حالك، وتطهرها من خطايا شعبها الآثم، وتحررها من عبودية الأجنبي على يد منقذها الجديد.. سموكم ..... - ٢١٠ -

من أقوال مكيافيللي المشهورة

سيدي الأمير:

إن الاختبار الصـحيح للرجـل الكامـل، هـو قدرتـه على الاحتمال، بعزيمة، وكرامة كل ما يطعالـه بـه الحـظ من تبدُّلات في طوالعه، ومن الواجب درس الدستور بـنفس هذه الطريقة وعين الاتجاه.

* * *

الشجعان هم الذين يحتملون كل ما يأتي به القدر من خير وشر.

سيدي الأمير:

أنت وِلدْت من أجل الحرب؛ فالحرب بالنسـبة للرجـل، كالولادة بالنسبة للمرأة.

* * *

عندما يقوم الملك بفتح مملكة جديدة، فعليه أن ينقل عاصـمة ملكه إلى هذه المملكة الجديدة؛ لأنه مستقر في المملكة الأصـلية ويحتاج إلى تدعيم نفوذه في المكان الجديد.

الغاية تبرر الوسيلة.

على الجمهورية أو الأمير أن يعمل في الظـاهر بـدافع الحرص والنبل ما تحتم عليهما الضرورة عمله.

* * *

سيدي الأمير

أيهما أفضل أن يكون الحاكم مهيبا، أم محبوبا؟ لقد علمتني التجارب أنه من الفضيلة أن يكون مهيبـا؛ لأنـه لـو كـان محبوبا فسوف يكون ذلك بسبب شيء ما، وسـيزول حـبهم له بزوال هذا السبب، أما المهابة فإنها ستظل فـي قلـوبهم لا تزول أبدا.

* * *

سيدي الأمير

يجب أن تكون شجاعا وكريما، فإن لم تستطع أن تكـون كذلك، فيجب على الأقل أن تبدو أمام شعبك كذلك.

* * *

كثير من الناس يتساءلون: أيهما أهم فـي حـظ الأميـر في السلطة: الحظ.. أم الاجتهاد؟ في رأيي يا سيدي الأميـر أن ٥٠٪ من بقاء الحاكم في السلطة يعتمد على الحظ، و٥٠٪ يعتمد على الاجتهاد.

مقدمة

يعتَبر كتاب الأمير من أشهر الكتب التي لاقـت نجاحـا باهرا، وتُرجِمَ إلى أغلب لغات العالم، وقـد تناولـه القُـرَاء خاصة القـادة والساسـة والمهتمـين بالسياسـة الداخليـة والخارجية؛ لما فيه من موضوعات مهمة تتصـف بالنزعـة العدوانية، ومعاملة الأمير للرعية، وكيفية الانتقام من العدو.. وكيف يكون الانتصار سواء بالحيلة أو الخديعـة أو ارتقـاء العرش فوق جماجم المهزومين.

إن مؤلف الكتاب هو السياسي الداهية نيقـولا مكيـافيللي في القرن السادس عشر، كتبه بعد خبرات طويلـة وأبحـاث مستفيضة دامت أعواما طويلة، وقد ظهر هذا الكتـاب بعـد وفاته بخمس سنين ولكن الكثير من الـدول منعـت نشـره ذي بدء؛ لأنه يتعارض مع الإنسانية والدين وحب النـاس.. ولقد تناوله الكثير من نُقاد العالم بالرفض والامتعاض وهـو منذ ظهوره يثير جدالاً كبيرا وخلافًا حادا؛ إذ اعتبره علمـاء الأخلاق كتابا مناسبا فقط للأشرار والطغاة الـذين يحكمـون البلاد ولكن رغم ذلك فهو يضم بين صفحاته مادة ضرورية

وهامة لدراسة علم السياسة في عصر النهضة.. ولا تـزال جامعات العالم تقوم بتدريس هذا الكتاب لطلابها..

ولقد قرأت الكثير من مؤلفات مكيافيللي خاصة هذا الكتاب الذي أقدمه إلى القارئ اليوم بالدراسة والبحث مستعينًا بـأهم المراجع القيمة مثل قصة الحضارة – ول ديورانت، وتعليق نيسلي ووكر في مطارحات مكيافيللي.

وقدّمت بعض التعليقات اللازمة، كما قمت بتغيير عناوين الموضوعات بعناوين أخرى مناسـبة للموضـوعات آخـذًا في الاعتبار المحافظة علـى جـوهر الموضـوع وفكرتـه الأساسية.

ولقد كان الهدف من تأليف هذا الكتاب هو تقديمه كهديـة إلى أمير من أسرة مديتشي؛ آملاً بذلك أن يعيده إلى الخدمـة العامة وإلى سابق مجده.. وقد أهداه بالفعل إلى لورنزو قبـل موته عام ١٥١٩.

كما لا يغيب عن بال أحدٍ أن هذا الكتاب يحتاج إليه كـل من ينشدُ القوة السياسية أو يعمل على زيادتها، وقـد درسـه عدد كبير من الملوك والأمراء الذين اختلفوا فـي طبـاعهم وأهدافهم مثل كرستينا ملكة السويد، وفريـد سـياريك ملـك

بروسيا وبسامرك وكلمنصو، ثم اتسعت هذه الحلقة في القرن العشرين اتساعا كبيرا فشملت أولئك الذين ثاروا على أنظمة الحكم القديمة، وقد اختاره موسوليني في أيام تلمذته موضوعا أساسيا للدكتوراه التي نالها، وكان هتلر يضعه على مقربة من فراشه فيقرأ فيه كل ليلة.. وقد ذكره في كتابه – كفاحي.

ومنذ مائة عام تقريبا اهتم العالم اهتماما كبيرا بهذا الكتاب، وقد أُطْلِقَ على مكيافيللي اسم مدرس علم السياسة الحديث، ويرى بعض المؤرخين المشهورين من أمثال رانكي دومينيك في ألمانيا، واللورد اكتون من إنجلترا في مكيافيللي أحد مؤسسي طريقة التحليل التاريخي الحديث؛ ولذا فإن دراسة كتاب الأمير ومؤلفه من جديد يلقيان ضوءا ساطعا على أسس مشاكلنا السياسية الحاضرة.

أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم هذا الكتاب إلى القارئ العربي وفي إرواء ظمأه إلى المعرفة... وشكرا.

خليل حنا تادرس

الأمير

كتاب لكل العصور

يعدُ كتاب الأمير.. لمكيافيللي من أروع وأجمـل الكتـب التي ظهرت فـي القـرن السـادس عشـر عـام ١٥٣١، وقد ظهرت بموافقة البابا كليمنت السابع.. وعند ظهور هـذا الكتاب وغيره من مؤلفات مكيـافيللي سـواء فـي إيطاليـا أو فرنسا أو ألمانيا أو أسبانيا أو البرتغال أو إنجلترا كانـت هناك ضجة هائلة يشـترك فيهـا البروتسـانت والكاثوليـك على حدٍ سواء؛ مما أدى في عام ١٥٥٩ إلـى وضـع هـذا الكتاب وجميع مؤلفات مكيافيللي في قائمة الكتب الممنوعة؛ وذلك لسوء فهم هذه الكتـب.. ولكـن لـيس ثمـة شـك في أن الإدانة في قضية مكيافيللي كان لها ما يبررها تمـام التبرير، ولا تُوضع الكتب عادة على قائمة الكتب المحرمـة لمجرد احتوائها على أخطاء فـي الـدين أو الأخـلاق بـل إنها قد تكون أحيانًا ذات نزعات خاصة، وتـؤدي قراءتهـا إلى الأذى والضرر، والهدف الأساسي الذي دفع مكيـافيللي إلى تأليف هذا الكتاب وهـو أنـه يقصـد تعلـيم الأمـراء

والمرشحين للإمارة والسلطان كيف يسيطرون على الحكـم بالعصا والكرباج.. كيف يغدون من الجبـابرة والطغـاة..؟ كيف يستطيعون تثبيت أقدام عهودهم ولكـن هـذا الهـدف مشكوك في صحته؛ إذ إن الحقيقة أن هذا الكتـاب ينطـوي على أشياء يفيد فيها الحاكم المطلـق – والحـاكم الطاغيـة، وقد قامت الأدلة على هذه الصـحة؛ إذ إن بعـض الحكـام من أمثال شارل الخامس ملك أسبانيا، وكـاترين دي مـيش زوجة هنري الثاني ملك فرنسا ووزرائهـا الـذين تحمسـوا أشد الحماس للكتاب وشجعوا طبعـه وتوزيعـه وانتشـاره في جميع البلاد، ولا يمكن الشك في أن عـدد مـن الطغـاة الميالين للحكم حكما استبداديا هم الذين اسـتفادوا مـن هـذا الكتاب منذ أن جاء به توماس كورجر وهو من أكبر وزراء الملك هنري الثامن وأشد المعجبين بمكيافيللي، وقد اسـتطاع ذلك الملك إقامة الحكم الفردي في شئون الدولـة والكنيسـة الذي مارسه، والذي كان كروميك نفسه مسئولاً عنه إلى حدٍ بعيد.

وقد عُثِرَ على الكتاب في جيبي الملـك هنـري الثالـث وهنري الرابع ملكي فرنسا عند قتلهما، كما أعجب بالكتـاب

أيضا الكردينال ريشيليو وهو من أكبر الطغاة في تاريخ فرنسا في عهد الملك لويس الثالث عشر.

كما أثر على سياسة فردريك الأكبر ملك بروسيا مؤسس ألمانيا الحديث، وقد درس هذا الكتاب في شبابه وعارضه في كتابه المشهور "أنا ضد مكيافيللي".

وعرف نابليون بونابرت إمبراطور فرنسا كتاب الأمير وجعله من مقدمة أجود ألف كتاب اختارها لتؤلف له مكتبة متنقلة، واتبع الإمبراطور نابليون الثالث في سياسته نفس القواعد التي وضعها مكيافيللي.

ومن بين المعارضين لهذا الكتاب المؤلف لويس جولي الذي ألف كتابا نقد فيه نقدا لاذعا هذه السياسة أسماه "حوار في الجحيم بين مكيافيللي ومونتسكيو"، وهذا الكتاب الذي يعتبر المرجع الأساسي الذي قامت عليه "قواعد حكماء صهيون" أوضح فيه المؤلف أنه من السهل بالنسبة إلى مبادئ مكيافيللي إذا ما وقع انقلاب عسكري، أن يحول دولة تقوم على أسس ديموقراطية سليمة إلى دولة من الطغيان تسعى إلى فرض السيطرة على العالم.

ولا شك في أن القواعد التي وضعها مكيافيللي فصلاً بعد آخر، هي نفس القواعد التي جعلها أدولف هتلر نصب عينيه والتي عمل على تنفيذها تنفيذًا حقيقيا..

والحقيقة أننا لا نعرف إذا كان هتلر قد قرأ كتاب جولي.. أم لا، ولكننا ندرك تماما أنه قرأ كتاب قواعد حكماء صهيون التي هي في الحقيقة شرح لخطب مكيافيللي، وقـد اعتـرف بذلك في كتابه كفاحي.

كما أن "روشنج" كان يحتفظ بكتاب الأمير دائما إلى جانب فراشه.

والجدير بالذكر أيضا أن الكتاب الذي أصدرته "بـاربيرا" في عام ١٩٢٩ عن مكيافيللي وآرائه ونظرياته قـد أهدتـه إلى الملك "فكتور عمانوئيل" الثالث قائلة:

إن مكيافللي هو المثل الأعلى لإيطاليا الحديثة، ويعدُّ كتاب الأمير هو من أكثر الكتب التـي تقـرأ فـي هـذه الـبلاد، وأن يكون أحد الكتب المقررة التي يجب أن يطالعها طـلاب عصر النهضة في جامعة أكسفورد ينصح مكيافيللي كل دولة من الدول بأن عليها أن تنظر إلى جميع الـدول الأخـرى، على أنها دولة معادية محتملة، وأنها يجب أن تعامل على هذا الأساس، وأن المفاهيم الأخلاقية تتوقف عن أن تكون عمليـة

في هذا الصدد، وهو لا يعبأ مطلقًا بدراسة ما ستكون عليه النتائج، وفي حالة تبني جميع الدول لنصحيته، مع أن هذا أمر واجب، إذا أردنا الحكم على مصلحة السلوك السياسي على ضوء نتائجه وإذا ما اعترض معترض على هذا التعليق إذ يقول إن مكيافيللي قد عاش في عصر تسيطر عليه روح القومية النامية.. فإن الجواب يكون أن مكيافيللي لا يطلب من وجهة نظر هذا العصر فحسب أن تحكم على قواعده، بل من وجهة النظر المتعلقة بكافة العصور.. وإذ قدر لإنسان أن يجعل من المصلحة قاعدة له.. فمن الواجب دراسة هذه القاعدة من كافة جوانبها.

ويرجع السبب في شهرة هذا الكتاب أنه صغير الحجم ويكثف المادة من الناحية الأخرى، ولعل هذا اليسر كان عاملاً من عوامل ترجمته إلى أغلب لغات العالم بسرعة هائلة.. يضاف إلى هذا أن التكثيف في مادته قد جعل منه أحد الكتب المقررة في برامج الدراسات المتعلقة بجواهر الفكر العالمي، والأدب والسياسة في أكثر من جامعة الجامعات العالمية المشهورة.

ويعدُّ هذا الكتاب أيضا هو "الدستور" الذي يوجه سياسة الطغاة والمستبدين، والديكتاتورين، والعديد من الدول في جميع تصرفاتها وميولها والتي كانت كما تبدو لكل من يراقب سير هذه السياسات وآثارها ونتائجها القول الفصل

في كثير من التطوُّرات العالمية في العصور الحديثة.

وقد اعتبر الكثيرون من المفكرين أن آراء مكيافيللي في السياسة هي من أحجار الزاوية في طريقة الاستقراء العلمية الحديثة، ومن أسس علم السياسة العصري، وقد أحدثت ثورة وضجة هائلتين؛ نظرا لما أحدثه من خروج على العقائد التي كانت سائدة وقتئذ، ومن ميل عن الفلسفة الأخلاقية التي تبشر بها المذاهب الدينية المسيطرة وبالرغم من العصر الذي عاش فيه والذي انطلقت فيه أفكاره، كان يتمخض عن ثورة جامحة من مجالات الفكر العالمي تمثلت في عصري النهضة والإصلاح الديني، وعلى الرغم من أن هذه الانطلاقات الفكرية هي التي أدت إلى ظهور مارتن لوثر كنج، ونيوتن، وكبريتك، وجاليليو، وغيرهم من رواد الفكر العالمي..، إلا أن آراء مكيافيللي كانت غريبة كل الغرابة على العصر الذي ظهرت فيه فاستنكرت هذا العصر وحرَم قراءتها وجاء بها ووضعها في قائمة الكتب الممنوعة حتى أواخر القرن التاسع عشر.

نشأة مكيافيللي

وِلَدَ نيقولا مكيافيللي في ٣/ ٥/ ١٤٦٩ وهو ينتمي إلى أسرة نبيلة بارزة شغل معظم أفرادها مراكز بارزة في فلورنسا كحاملي الشعار.. وكان والده محاميا مشهورا.. وكانت والدته شاعرة تقرض الشعر، وقد تلقى تعليما ليبراليا حرا يتفق مع مكانته الاجتماعية، كما تلقى شيئًا في الدراسات الفلسفية، وقد درس القانون أيضا، ودرس شيئًا من التاريخ.

كتب المؤلف بسكال فيلاري كتابا عن حياة مكيافيللي في ١٠٨٥ صفحة سنة ١٨٩٨، وترجمته إلى الإنجليزية ليندا فيلاري، وقد قسم الفترة التي عاشها مكيافيللي إلى أربع فترات وهي:

١- الفترة الأولى الواقعة بين ١٤٦٩ و١٤٩٨، والتي نشأ فيها مكيافيللي كغلام في فلورنسا ثم تلقى تعليمه وعينَ كاتبا في المصالح الحكومية.

٢- الفترة الثانية وتقع عامي ١٤٩٨ و١٥١٢، وقد شغل فيها منصب السكرتير الأول لحكومة فلورنسا، وأرسل في خلالها إلى عدد من البعثات المهمة بالنيابة عن حكومته.

٣- الفترة الثالثة وتقع بـين عـامي ١٥١٢ و١٥١٧، وقد قضاها في عزلـة خـارج فلورنسـا يكتـب فيها كتابه مطارحات مكيافيللي.

٤- الفترة الرابعة وتقع بين عـامي ١٥١٨ و١٥٢٧ وكتب في أثنائها كتابـه عـن الحـرب وتـاريخ فلورنسا وشغل في نهايتهـا مناصـب حكوميـة على جانب كبير من الأهميـة إلـى أن وصـل إلى وظيفة وزير خارجية فلورنسا.

وقد أُوفِدَ مكيافيللي إلى عدد ضخم من البعثات الدبلوماسية وكتب كثيرا من الرسائل والتقارير المتعلقـة بهـا وتقابـل مع ملوك وأمراء العالم في مهمات رسمية.

وكان أول لقاء لمكيافيللي مع قيصر بورجيا عام ١٥٠٢؛ وذلك لتغيير الحكم في فلورنسا كلها، وقد قضى ثلاثة أشـهر في صحبة بورجيا، وتعـرَّف إلـى مسـاعده الأفـاق دوق ميشيلينو الذي دعاه فيما بعد لتنظيم قوات المتطوعـة التـي أنشأها في فلورنسا، وشهد معـه نهـب رجـولا، واقتحـام فوسوميروزي، والمعركة التي خاضها بورجيا مع الأورسيني ومفاوضاته الناجحة مع زعماء الثوار ثم القضـاء علـيهم،

وكانت الخديعة التي استخدمها بروجيا مصـحوبة بالحيويـة في القضاء على زعماء الثورة هـي السـبب الـذي دفـع مكيافيللي إلى أن يجعل منه- أي مـن قيصـر- النمـوذج المثالي للجمع بين القوة والحيلة وذلك في كتابه الأمير.

كما أُوفِدَ في خمس بعثات إلى سينا وإلـى المعسـكرات الواقعة خارج بيزا.

وأُوفِدَ في بعثتين إلى روما جعلتاه يتصل اتصالاً مباشـرا بالبلاط البابوي الذي انتقده انتقادا مرا، كما أُوفِدَ مكيـافيللي في ١٥٠٦ إلى بلاط يوليوس الثاني الذي كـان قـد شـرع في حملة لطرد الطاغيين اللذين يحكمان بورجيـا وبولونـا واللذين كانا قد طلبا العون والمساعدة من فلورنسا، وكانـت مهمة الرسول أن يظهر للبابا استعداد فلورنسـا للاشـتراك في هذا "العمل المقدس"، وظل مكيافيللي على اتصال وثيـق بالبابا أثناء الحملة على الرغم من عدم حبه له.

وذهب في أربع بعثات إلى فرنسا وقد تعلـم مـن هـذه البعثات الكثير عن طرق الفرنسيين وعاداتهم ودسائس البلاط عندهم.

وعاش مكيافيللي حياته كلها متنقلاً مـن بلـد إلـى بلـد إلى أن توفي في عام ١٥٢٧ بعد أن ترك ثروة هائلة.. خالدة نتيجة جولاته وتنقلاته بين الدول في مهمات سياسية.

مؤلفات مكيافيللي

١- الأمير وهو أشهر وأمتع كتاب كتبه مكيافيللي عام ١٥١٣، وقد أحدث ضجة سياسية هائلة في جميع بلدان العالم، وقد طُبِعَ عام ١٥٣٢؛ أي بعد وفـاة مؤلفه وتُرجِمَ إلى كافة اللغات العالمية.

٢- المطارحات عن الفترة الأولـى ليتنـوس ليفـي وقد بدأها عام ١٥١٣ وانتهى منها عام ١٥١٨.

٣- "فن الحرب" بدأ في كتابته عـام ١٥١٨: ١٥٢٠ وقد أُهدِي إلى الملكة اليصابات.

٤- تاريخ فلورنسا، ويقع في ثمانية مجلدات، ويعرض فيه مؤلفه لتاريخ فلورنسا منذ أقدم العصور حتـى وفاة دي ميشي عام ١٤٩٢، وقـد تُـرجِمَ أيضـا إلى عدة لغات عالمية.

ولز.. ومكيافيللي

وفي كتاب مكيافيللي الجديد يصور ولز كفاحا بين المحبة والواجب، ويفسر الأحوال السياسية في هذا العصر، ويشكو من النفاق الجوهري للفطرة العصرية، يرى رفع السياسات إلى جو أوضح وأجمل.. ولقد قرأ ويلز كتاب "الأمير" فرأى فيه نقائص لا تليق بهذا العصر الجديد، ورآه لا يعترف بالمرأة التي أخرجها من نظام حكومته وطردها من مخيلته كآلة للولادة ومضيعة لوقت الأمير، ولكن العصر الحديث يمتاز باكتشاف نصفه الآخر النسوي؛ فأخذ ولز على عاتقه تأليف مكيافيللي جديد في قالب روائي شيق تندمج المرأة في نظام حكومته، واعترف ولز فيه بجمال وقوة الحب بين المرأة والرجل وأثره في نظام الحياة.

وبينما يقدم مكيافيللي كتابه – الأمير – فإن ولز يقدمه إلى النزعة الاجتماعية الإصلاحية في أي إنسان، فلقد بات عصرنا لا يصلح لحكم فردي كما تخيل أفلاطون، وكونفوشيوس، ثم مكيافيللي.. لقد كان عصر مكيافيللي في حاجة إلى عمل إنسان مفرد، ولكن تلك الأيام التي كان الأمير فيها يشرع وينفذ، وكان منبعا ومركزا للقوة قد ذهبت

ومضى أوانها؛ فنحن اليوم في حال أكثر من سابقتنا تعقيـدا، حال يبدو فيها الأمير أو السياسي كخادم، والمخلوق البشري الذكي – كأمير – عصر اختفت فيـه القـوة؛ لأنهـا زادت وشملت، فلم تصبح قوة سالبة، بل موجبة، وهذا العصر يفوق كل العصور السابقة في كثرة رجاله الأقوياء، وعصر مختلط النظام يحتاج إلى حكومة عادلة، منظمة.

الأمير والمطارحات

يهتم كتاب الأمير في موضوعه بصفة خاصة بالإمارات، وهي الدول التي يحكمها واحد فتجمع في يديه كافة السلطات ويمسك بزمام الأمور؛ لذا فقد ركز مكيافيللي اهتمامه في معالجة طرق الوصول إلى الحكم، والوسائل التي يعتمدها الأمير في تثبيت دعائم حكمه.. ثم إلى معالجة شئون الإمارات الكنسية التي لا تنطبق عليها القواعد المقررة.

أما في المطارحات فعالج شئون الجمهوريات وكيف يستطيع مواطن عادي فيها، عن طريق اللجوء إلى كافة الوسائل الشريفة أو الدنيئة كإثارة الجماهير وتأليف الأحزاب القوية، واستنفار العون الأجنبي أن يقيم لنفسه إمارة في بلاد كانت تتمتع بالحكم الذاتي، وأن يعرضها للأخطار التي يجب أن تكون حريصة دائما في انتقائها.

وهو في أحاديثه يقيم عددا من المفاهيم التي ينبغي على كل حكومة تطمع في استقرار أمنها ودوام سلامتها، أن تعيها سواء أكانت جمهورية أو ملكية في شكلها وطابعها.

كما أنه يذكر أيضا في المطارحات، عددا من القواعد التي تنطبق على الجمهوريات والإمارات على حد سواء

كما أنه لم يذكر في كتاب الأمير شيئًا عن قادة الجيوش، أما في المطارحات فهو يتحدث عن الطريقة التي يجب أن تعامل بها الدول قادتها العسكريين، وعن الكيفية التي يجب يتبعها هؤلاء القادة في معاملة حكوماتهم وجنودهم وهو يقارن في مطارحاته أيضا بين الإمارات والجمهوريات مفضلاً نظام الحكم الجمهوري باستثناء ما يتعلق منه بمعاملة رعايا المدن الخاضعة والشعوب المحتلة وإدارة دفة الحروب، ويتناول في المطارحات رغم اهتمامه الرئيسي بالجمهوريات.. وبجمهورية روما بالذات آفاق السياسة كلها ويعرضها من وجهة نظر الحاكمين والمحكومين على حد سواء.

وهنا يمكن القول إن كتاب المطارحات قد عالج شئونًا كثيرة عن كتاب الأمير.

نصيحة

عندما يسدي مكيافيللي نصيحته إلى الساسة على دراسة الماضي، كما يفعل دائما، فهو يضع أمام عينيه إمكان الوصول إلى التعميمات، وعندما يقارن بين الماضي والحاضر فإنه يفعل ذلك لا لمجرد تأكيد تعميماته، وإنما بقصد إسداء النصح والإرشاد إلى الساسة في هذا الشأن أو ذاك من شئون الحياة مع وجود هذه الغاية أو تلك فيما يجب أن يفعلوه لتحقيقها.

وقد استعملت كلمتي (مهما كانت) لأن مكيافيللي في الحقيقة لا يقصر نصائحه على الجمهوريات بل يسديها أيضا إلى الأمراء، ولا يقدمها إلى من في الحكم فحسب، بل إلى من يرغبون في الوصول إليه أيضا، ولا يسديها إلى أولئك الراغبين في الحفاظ على عهد قائم فحسب، بل إلى أولئك التوّاقين إلى قلب ذلك العهد أيضا، وهو يقوم بهذا من ناحية مبدئية؛ إذ لما كانت هذه الغايات قد وجدت كثيرا في الماضي، ما يساعد على تحقيق هذه الغايات وما يحول دون تحقيقها أو يؤخره أيضا.

وهو لا يتقدم بالنصيحة إلى الطغاة لأنه يحب الطغيـان، وهو لا يسدي مشورته إلى المتآمرين لأنه يؤيد المـؤامرات واستحالة النجاح فيها، ولكنه يتقدم بالنصيحة إلـى الجميـع على اختلاف فئاتهم؛ لأنه يرغب في إقناع قُرَائـه بشـمول ما في أسلوبه من تطبيق.

لعبة الحظ في مصير الدول

يقول المثل..

وجاءت الرياح عكس ما تشتهي السفن.

أي أن الظروف والأقدار قد يلعبان دورهما في حياة الإنسان.. أو في حياة الأمم..

وقد يلعب الحظ أيضا دوره في حياتنا.. قد يكون الحظ حليف الإنسان.. أو يكون ضده.

وهنا يتساءل مكيافيللي في أميره إذا كانت الفضيلة أو الحظ السبب الرئيسي في حصول روما على إمبراطوريتها ولكن الحقيقي أن كل ما يقوله مكيافيللي هو أنه ٥٠٪ من أعمال الناس تنبثق من إرادتهم الحرة، أما الـ ٥٠٪ الأخرى فيقررها ظروف تتعدى سيطرتهم، وهو يقارن الحظ بالبحر الهائج الذي لا يستطيع المرء مقاومته أثناء فيضانه ولكن بعد سكون الفيضان وتحسن الجو، يستطيع الناس مقاومته عن طريق إقامة السدود والتحصينات الدفاعية، ويلقى الذين يعتمدون على الحظ وحده الدمار والهلاك.. إذ إنه معرَض للتغير والتغلب، أما أولئك الذين

يكيفون أنفسهم لهذه اللحظة فقد ينجحون؛ إذ ربما تكون هناك سبل عديدة تؤدي إلى نفس النتيجة أو الغاية.

وهو يقول في مطارحاته:

إن الحظ يطمس على عقول الناس، عندما لا يريد منهم الوقوف في طريق مشاريعه، كان يستند في قوله إلى الحقائق التي لاحظها؛ فكثير من الأحداث تقع، وكثير من المصائب تحل دون أن يكون المرء قد أخذ أهبته لمواجهتها.

وكثيرا ما تنتهي أو تؤدي بعض الأحداث التي لا مسئولية لنا فيها.. إما إلى النجاح.. أو الفشل.

يضاف إلى هذا أن مكيافيللي قد تأثر عند قراءته لتاريخ "**ليفي**" الذي يستند في حديثه إلى ما وقع من روما عندما هاجمها "العاليون" عام ٣٦٠ ق. م. ونحن.. إذا قبلنا هذه الحقائق كما وضعها ليفي تبين لنا أن الأحداث قد حدثت بالفعل وحلت الكارثة على روما أولاً، ثم عادت فالتقطتها من سقطتها، ولم يكن للرومانيين في كلتا الحالتين أي دخل في تخطيط الأحداث أو ترتيب حدوثها؛ وهذا ما جعل مكيافيللي يعزوه إلى الحظ الذي قرر أولاً (ضرورة معاقبة

روما، ثم رأى أن لا حاجة إلى دمارها النهائي.. فأعد الأمور بحيث تمهد لها سبيل إنقاذها من سقطتها).

ولكن..

مهما كانت مسببات هذه الأحداث التـي تتعـدى حـدود سيطرتنا.. فمن الجلي أن مكيافيللي كان يدرك تماما أن هـذه المسببات كانـت تعمـل عـن غايـة وقصـد، ولا شـك في أن معالجة مكيافيللي للحظ، تتفق تماما مع روحانيته، فهي وثنية وفردية في وقت واحد وهو يستند من أقواله إلى"ليفـي" ولكنه في تطويره لآراء ليفي يضع لنفسه خطة يسير عليها، ويصل عن طريق هذا الأسلوب إلى النتيجة القائلة:

بأن العناية الإلهية تسهر على حياة الأفراد وتقدم الشعوب، وسير الكنيسة، فتؤيد أعمال الناس تـارة، وتعكسـها تـارة أخرى، وتسهل لهم مصالحهم مرات عديدة بشكل لم يكونـوا يتوقعونه، أو قد خططوا له، وتضـع العثـرات والعراقيـل أمامهم مرات كثيرة، بحيث يمكن التغب عليهـا إذا تـوفرت الفضيلة عندهم.

آراء مكيافيللي والفلاسفة

يقارن مكيافيللي في كتابه الأمير بين طريقته وطرائق الناس فيقول إنها:

أولاً: تهتم ببساطة باكتشاف الحقيقة، ليس إلا، بإقامة جمهوريات وإمارات مثالية من النوع الذي لا يصادفه الإنسان في حياته العامة..

ثانيا: لا تهتم بما يقوله علماء الأخلاق عما يجب عمله، بل.. بما يعمل حقًا، وبما يفعله الأمراء بصورة خاصة للحفاظ على وجودهم وكيانهم، ويضيف إلى هاتين الملاحظتين قوله على سبيل التحذير: إنه إذا كان الحفاظ على الوجود هو الهدف من علم السياسة، فإن المفاهيم التي يضمنها طريقته لا تختلف فيما تؤدي إليه، عن مفاهيم رعاة الأخلاق، وتتعارض معها أحيانًا.

ولا شك أن مكيافيللي كان يضع أفلاطون في قائمة الذين يختلف معهم في الرأي في هذا الموضوع بالإضافة إلى عدد آخر من رجال الفكر أمثال دانتي (مؤلف الكوميديا الإلهية وهو أشهر شاعر إيطالي) وأرسطو والقديس توما الأكويني (وهو من أشهر علماء اللاهوت في القرون الوسطى).

وقد أجمعت الآراء على أن طريقة مكيافيللي في البحـث جديدة.. وذلك بمقارنتها بـالطرق التـي اتبعهـا الآخـرون من أسلافه المشهورين – كما أن طريقته كانت بالفعل تختلف مع طرائقهم.

إلى ادعاء مكيافيللي بأن طريقته تشبه في جدتها اكتشـاف كولمبس لأمريكا.. وإلى قوله بأن أيا من أسلافه لـم يسـبق له الغوص فيها من قبل، فإن الأسلوب المألوف في التحقـق من صحة ادعاء مكافيللي، وتتألف الطريقـة التـي اتبعهـا مكيافيللي بصورة رئيسية من النقاط الآتية:

١- العودة إلى التاريخ بحثًا عن حادثـة قـد يتكـرر وقوعها كسلوك أي حاكم أو حكومـة أو منظمـة أو فرد واستقصاء نتائجها من حسنة وسيئة، وذلك بالنسبة إلى علاقتهـا بالشـخص أو الأشـخاص أو الدولة، أو إبراز نتيجة معينة ووضـعها أمـام الحاكم أو الحكومة أو المؤسسة أو الفـرد سـواء أكانت نافعة أو ضارة، ثم استقصاء سير السـلوك الذي أدّى إلى وقوع هذه النتيجة.

٢- الاستقصاء عما إذا كان قد دفع حادث مماثل في التاريخ للحادث المشار إليه والاهتمام به بصورة خاصة إذا كان قد وقع في العصور الحديثة.

٣- وضع تعميم في حالة تكرار ذلك الحادث. يقول: إن حادث (س) يؤدي دائما في الغالب، أو في معظم الأحايين إلى النتيجة (ص).

٤- الاستقصاء عما إذا كانت هناك أمثلة سلبية تناقض هذا التعميم كإيجاز المسببات دون أن تكون لها نفس النتائج: وفي حالة العثور على مثال من هذا النوع القيام بدراسة لاكتشاف ما إذا كان حادثًا سلبيا أصيلاً أو أنه سلبي في الظاهر ليس إلا.

٥- البحث عما إذا كانت النتيجة من النوع المرغوب فيه أو الكريه بالنسبة إلى الحاكم أو المحكوم أو المنظمة أو الفرد أو مجموعة الأفراد من ذوي الميول والأذواق المتشابهة، ووضع قاعدة لتحديد نوع السلوك الذي يجب أن يتبع في حالة كون

النتيجة من النوع المرغوب فيه.. أو السلوك الذي يجب أن يتجنبه الإنسان إذا كانت النتيجة سيئة.

٦- عندما ينظر إلى مفاهيم الأخلاقيين من وجهة نظر غير متحيزة يمكن الحكم عليها على ضوء نتائجها.. تماما كما يحكم على أية منظمة.. وإذا ما ثبت أن النتيجة ضارة من الناحية السياسية، يجب إبراز ذلك مخافة أن يتبع الحكام احترامها منهم لآراء الأخلاقيين سيرا من السلوك قد يؤدي إلى كارثة سياسية.

تلك هي الافتراضات الستة التي تلخص تمام التلخيص.

الخصائص البارزة للطريقة التي يتبعها مكيافيللي، ولا يعترض على الخمسة الأولى منها إلا أولئك الذين ينكرون افتراض مكيافيللي الأساسي وهو أن التاريخ يعيد نفسه، والذين يرون أن الأوضاع هي من التعقيد بحيث لا يستطيع المرء الوصول إلى أية قواعد عامة، ذات قيمة عملية عن طريق مقارنة إحدى النتائج المسببة بنتيجة أخرى، لكن القاعدة الأساسية لا تتجزأ عن الموقف الذي اتخذه مكيافيللي، فهناك أمثلة كثيرة على درس مكيافيللي لبعض

المفاهيم الأخلاقية وإعلانه ضررها من الناحيـة السياسـية، وقد ثبت فيما بعد خطأ مكيافيللي في ذلك.

وهو هنا يعالج المفاهيم الأخلاقيـة علـى اعتبـار أنهـا مداولات يمكن درسها على ضوء نتائجهـا.. وقـد أوصـله درسه هذا إلى الاستخلاص القائل:

أنه في ظل بعض الظروف يؤدي اتبـاع هـذه المفـاهيم إلى أضرار سياسية بالغة.

وإذا ما درسنا النتائج لاتباع هذه المفاهيم أو عدم اتباعهـا لا من وجهة نظر الفرد وحده، بل من وجهة نظـر العـالم في مجموعة لاتضح لنا أن ليس ثمة تعارض في الحقيقة بين المصلحة وبين المفاهيم الأخلاقية.

* * *

يقول الفيلسوف دانتي في كتابه الملكية.. عندما يعين أكثر من فرد واحد لهدف واحد يجب أن يكـون أحـدهم حاكمـا أو موجها.. وأن يكون الآخرون محكومين أو موجهين، وهذا ما يؤيده المعلم الأكبر (أرسطو) وتنصـره الحجـج القويـة فعندما يوكل إلى جميع حواس الإنسان بالعمل لشيء واحـد فإن حاسته العقلية يجب أن تتحكم وتوجه الحواس الأخـرى،

وفي العائلة يجب أن يكون هناك واحد يحكم ويوجـه وهـو ربها، وإذا ما طبقنا الأمر على مقاطعة، تبين لنا، أن واحـدا يجب أن يحكمها وأن يوجـه الآخـرين إذ عنـدما يحـاول الكثيرون البروز يلحق الدمار بالمقاطعة كلها، وهكـذا فـإن مصير كل مملكة تتجزأ على نفسها إلى الخراب والدمار.

* * *

ويقول الأكويني:

إن خيـر المجتمـع وسـلامته يقومـان فـي الحفـاظ على وحدته.. أي في الحفاظ على السلم، تختفي بدونه الحياة الاجتماعية، ومن الواضح أن في إمكـان الإنسـان الحـاكم أن يفرض الوحدة أكثر من الكثرة الحاكمة.. تمامـا كـأن يكون مسبب الحرارة حارا في ذاته.. ولذا فحكم الفرد أكثـر صلاحية من حكم المجموع، وهذا ما تؤيده التجربة؛ ذلك لأن المقاطعات في المدن التي لا يحكمها فـرد تكـون فريسـة للمنازعات ولا يسودها السلام.. بل يسـيطر عليهـا القلـق كالأمواج الصاخبة.

* * *

أما مارسيليوس البادوي فيدافع عن نظرية الحاكم الفـرد فيقول:

حتى ولو كان أفراد جماعة الحكم كلهم عـادلين، وكـان أحدهم يشاور الآخر فإن إدراتهم ستكون ناقصة ومشـلولة؛ فالأوامر المتعارضة قد تصدر عنهم، والخلافات والتحريات قد تنشأ، وستكون الجماعية غير لازمـة، وسـتفتقر الدولـة إلى الوحدة؛ ولهذا يتحتم وجود حاكم أعلى لأسـباب عقليـة

وعملية ولا شك في أن هناك أوجها للشبه بين مكيافيللي ومارسيليوس، ولكن هذا على الرغم من وضعه لقواعد عامة لا يقيم الدليل على ضمها بالأمثلة التي يوردها بل يستشهد عليها بفقرات من أرسطو.

* * *

ويتحدث أرسطو عن مختلف الوسائل التي قد يلجأ إليها الطاغية في كتابه "السياسة" لضمان مركز. فيقول:

هناك طريقة أخرى تركز على مبدأ للعمل يختلف كل الاختلاف، ويمكن تصوير طبيعته من المقارنة بين الأسباب التي تؤدي إلى تحطيم الملكيات؛ إذ لما كانت إحدى الطرق لتحطيم سلطان أي ملك من الملوك. هو تحوُّل هذا السلطان إلى النوع الاستبدادي، فإن "خلاص" الاستبداد يكون في تحوُّله إلى صورة تشبه إلى حد ما صورة حكم الملوك، وعلى المستبد الطاغية أن يعني بشيء واحد، وهو الاحتفاظ بقدر كافٍ من السلطان لحكم رعاياه، سواء وافقوا على ذلك أو لم يوافقوا؛ إذ إنه لو تخلى عن هذا السلطان تخلى عن طغيانه واستبداده.

ولكن على الرغم من أن السلطان، يجب أن يكون أساسـا في حكمه، فإن عليه أن يعمل، أو يتظاهر بالعمـل، بطبيعـة الملوك، فعليه مثلاً أن يدعي الاهتمام بموارد الدخل العـام، وأن لا يبدو قاسيا فظًا بل ذا شخصية مهيبة، حتى إذا ما قابله الناس تطلعوا إليه بعين الإجلال، لا بعين الخـوف، ولكـن من الصعب عليه أن يفرض احترامه إذا كان لم يكن ملهمـا بهذا الاحترام.

ولذا فإن عليه، مهمـا كانـت الفضـائل التـي يهملهـا، أن يحافظ على الأقـل علـى صـورة الرجـل السياسـي، وأن يوحي بالانطبـاع بأنـه مـن الساسـة، كمـا عليـه أن لا يعرض نفسه للاتهام بالمباذل الجنسية أمـام رعايـاه، وأن يكون على نقـيض الطغـاة الحـديثين، وفـي إقبالـه على ملذاته أو علـى الأقـل أن لا يعـرض هـذا المبـاذل على العالم.

وعليه أيضا أن يضفي الجمال والرونـق علـى مدينتـه وأن يحسنها، وكأنه ليس بالإنسان الطاغيـة، بـل الحـارس الأمين على دولته.

ولا شك في أن اهتمام مكيـافيللي بالتـاريخ، وإدراكـه لأهميته بالنسبة إلى السياسة، نجما بصورة لا تقبـل الشـك عن قراءته لقدماء المـؤرخين أمثـال ليفـر، وتاسـيتوس، وبلوتارك وغيرهم من أشهر فلاسفة ومـؤرخي الإغريـق، ولقد استقى كثيرا من آرائه عن التاريخ من أقوالهم.

وقد لفت "ثيوسيديدس" الاهتمام إلى أهمية الدقة في كتابـة التاريخ، وفي صعوبة الوصول إلى هذه الدقة ثم قال:

إذا كان من يرغب في الحصول أمام ناظريه على صورة صادقة للأحداث التي وقعت وما شابهها من أحداث قد تقـع في المستقبل في مجرى القضايا الإنسانية، يرى في ما أكتبه شيئًا نافعا، فإن هذا يرضيني غاية الرضا، فالتـاريخ الـذي كتبه، شيء له صفة الدوام والخلود لا موضوع عادي يقـدم للحصول على جائزة فيتْلى وسرعان ما ينْسى؟

ويقول شيشرون:

إن الفرق البارز بين الإنسان والحيوان، هو أن الحيـوان يسير بحواسه، وليست لديـه أيـة مفـاهيم عـن الماضـي والمستقبل، وإنما يكيف نفسه لواقعة في حاضره، بينما امتاز الإنسان بالفعل الذي يتفهم بـ تسلسل النتائج فيرى مسـببات

الأحداث، ويرى العلاقة بين السبب والنتيجة، وبين النتيجـة والسبب ويرسم المقارنات، ويربط بين الماضي والمسـتقبل ويستعرض بسهولة وببسـاطة سـير حياتـه كلهـا ويقـيم الاستعدادات المطلوبة لكل ما يعمله.

يقول نيتشه:

إن جماعة من الوحوش الكواسر، شقراء البشرة، جماعـة من الغزاة السادة، بكل ما لها من أنظمة حربية، وقوة منظمة، تنقض بمخالبها المخيفة علـى طائفـة كبيـرة مـن النـاس ربما فاقتها من حيث العدد إلى حد بعيد.

ويقول ليستر وورد:

تبدأ الدولة باعتبارها عن النظام القبلي بأن يغزو جـنس من الناس جنسا آخر.

ويقول بينهيمر:

إنك لترى أينما وجهت البصـر قبيلـة مقاتلـة تعتـدي على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعدادا للقتال ثـم تسـتقر في أرضها مكونـة جماعـة الإشـراف فيهـا، ومؤسسـة لها الدولة.

ويقول سمنر:

(إن الدولة نتيجة القوة وهي تظل قائمة بسند من القوة).

ومما هو جـدير بالـذكر أن تنـاول المـؤرخ العظـيم ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة قصة حياة الدبلوماسي الداهية نيقولا مكيافيللي قائلاً:

بقي من هذه الطائفة رجل واحد يصعب علينا أن نضـمه إلى صنف بعينه، فقد كـان دبلوماسـيا، ومؤرخًـا، وكاتبـا مسرحيا وفيلسوفًا، وأكبر مفكر ساخر في زمانه، ولكنه كان مع ذلك وطنيا متحمسا يتحرق رغبة في تحقيق مثل أعلـى نبيل، أخفق فـي كـل مـا أخـذ علـى عاتقـه أن يقـوم به من الأعمال، ولكنه طبع التاريخ بطابع يكاد يكـود أشـد عمقًا مما طبعه به إنسان آخر في ذلك العصر.

كان نيقولا مكيافيللي ابن أحد المحامين في فلورنسا، وكان هذا المحامي رجلاً متوسط الثراء، يشغل منصـبا صـغيرا في الحكومة، ويمتلك بيتًا ريفيا صغيرا في سان كاستشـياتو على مسيرة عشرة أميال من المدينة، وتلقى الغـلام التعلـيم الأدبي المعتاد، وتعلم أن يقرأ اللغة اللاتينية بسهولة، ولكنـه لم يتعلم اللغة اليونانية، وراقه التاريخ الروماني وأُولِعَ بليفي،

ويكاد يجد لكل نظام سياسي، وكل حادثة في أيامه شبها في تاريخ روما يوضح ذلك النظام وتلك الحادثة، وبدأ يدرس القانون، ولكن يبدو أنه لم يتم هذه الدراسة، وقلما كان يعني بفن النهضة ولم يظهر شيئًا من الاهتمام حين كُشِفَت أمريكا، ولعله كان يشعر بأن كل ما حدث بعد هذا الكشف أن مسرح السياسة قد اتسع، أما المسرحية فستبقى كما كانت وسيظل أشخاصها دون تغيير، وكان شغله الشاغل هو السياسة، من الحصول على النفوذ، ولوحة الشطرنج التي تنتقل عليها قطع القوة والسلطان، وعينَ في عام ١٤٩٨ وهو في التاسعة والعشرين من عمره أمينًا للديتش – مجلس الحرب المكوَن من عشرة – وظل في هذا المنصب أربعة عشرة عاما.

وكان هذا المنصب في بادئ الأمر في المناصب المتواضعة – عمله جمع محاضرات الجلسات، والسجلات، وتلخيص التقارير وكتابة الرسائل، ولكنه يعمل في أداة الحكم، ويستطيع مراقبة سياسة أوربا من نقطة الملاحظة الداخلية، وكان بوسعه أن يحاول التنبؤ بالتطوُرات المقبلة

بتطبيق معلوماته التاريخيـة.. وبحاسـة روحـه المتوثبـة، العصبية، الطموحة.

بأن الوقت دون غيره هو الـذي يحتاجـه لكـي يرقـى إلى القمة.

ويسخر قوى الدولة الطبيعية ضد دوق ميلان، ومجلـس شيوخ البندقية، وملك نابولي والبابا، والإمبراطور، وما لبث أن أُرسِلَ في بعثة إلى كاترينا اسفوردسا كونتة امولا وفورلي (١٤٩٨) وأثبتت كاترينا أنهـا أشـد دهـاء مـن أن تقـع في حبائله؛ فعاد صفر اليدين بعد أن لاقى جـزاءه، وجـرَب مرة أخرى بعد عامين، وصحبه في هذه التجربة فرانتشيسكو دلاكاسا في بعثة إلى لويس الثاني عشر ملك فرنسا ومـرض دلاكاسا، وكان على مكيافيللي أن يرأس البعثة، فتعلم اللغـة الفرنسية، وتنقل مع الحاشية من قصر إلى قصـر، وبعـث إلى مجلس السيادة من الأنباء اليقظة، والتحلـيلات الدقيقـة، ما جعل أصدقاءه في فلورانسا يثنون عليه ويقولون إنه أصبح دبلوماسيا ضليعا.

وكانت نقطة الانقلاب في تطوُّر ذهنه هي البعثة التي عينَ فيها مساعدا للأسقف سوديني، وسافرت إلى سيزار بورجيـا

في اربينو (١٥٠٢) ولما أُستُدعِي إلى فلورنسا ليلقـي بيانًـا عنها بنفسه، احتفل بمنزلته الراقية التي بلغها في العالم بـأن اتخذ له زوجة، وأُرسِلَ مرة أخرى إلى سيزاري فـي شـهر أكتوبر، فالتقى به في أمولا ووصل إلى بنجاليا فـي الوقـت الذي استطاع أن يرى فيه سـعادة بورجيـا بعـد أن أفلـح في اقتناص الذين ائتمروا به، أو خنقهم أو سحقهم، وكانـت هذه الحوادث قد هزّت مشاعر إيطاليا بإجماعها أمـا أثرهـا في مكيافيللي بعد أن التقى بالطاغية البـاهر وجهـا لوجـه، فقد كانت دروسا في الفلسفة؛ ذلك أن رجل الأفكار وجد نفسه وجها لوجه أمام رجل الأعمال فكرّمه هذا وعظمه – وتحرق قلب السياسي الشاب هذا حين أدرك المسـافة التـي لا بـد له أن يقطعها من التفكير التحليلي النظري إلى العمل الرائـع المحطم، فها هو ذا رجل يصغره بست سنوات قـد مضـى في سنتين على أكثر من عشرة طغـاة مسـتبدين، وأصـدر الأوامر إلى أكثر من عشر مدن، وأثبت أنه الكوكب المضاء في سماء زمانه، وما أضعف ما بدت الألفاظ أمام هذا الشاب الذي لم ينطق منها إلا بالقليل في ازدراء! وأصبح سـيزاري بورجيا من تلك الساعة بطل فلسفة مكيـافيللي كمـا أصـبح

بسمارك فيما بعد بطل فلسفة مكيافيللي؛ فقد وجد فـي هـذا الرجل الذي تجسدت فيه إرادة القوة والسلطان فلسفة أخلاقية توفر الخير والشر، ونموذجا للإنسان الأسمى.

ولما عاد مكيافيللي إلـى فلورانسـا عـام ١٥٠٣ أدرك أن بعض رجال الحكومة يظنون أن بورجيا الجريء المتهور قد غلبه على أمره فبدّل عقليته إلى غير ما كانـت، ولكـن جهوده التي بذلها لتحقيق مصالح مدينته أعادت إليه احتـرام اسدريني حامل شعار المدينة، ومجلـس العشـرة الحربـي، وشهد في عام ١٥٠٧ انتصار مبدأ من مبادئـه الأساسـية؛ فقد كان من زمن بعيد يقول إنه ما من دولة تحتـرم نفسـها تقبل أن تعهد بالدفاع عن أراضيها إلى جنود مرتزقين؛ وذلك أنها لا تستطيع الركون إليهم في الأزمات، ولأن في مقـدور العدو المسـلح بالقـدر الكـافي مـن الـذهب أن يبتـاعهم هم وقائدهم؛ ولهذا يرى مكيافيللي أنه يجب إنشاء قوة حرس وطني من أبناء الشعب، والأفضل أن تكون هذه القوة مؤلفـة من الفلاحين الأشداء، الذين ألفوا المشاق وعاشوا في الهواء الطلق، ويجب أن تكون هذه القوة حسنة التجهيز والتـدريب،

كما يجب أن تكون هي آخر خـط للـدفاع القـوي الثابـت عن الجمهورية.

وقبلت الحكومة هذا المشروع بعد تردد طويل، وعهـدت إلى مكيافيللي أن ينفذه.

فلما كان عام ١٥٠٨ قاد حرسه الوطني إلى حصار بيزا، وعاد مكيافيللي إلى فلورانسا وقد بلغ ذروة مجده.

وأُرسِلَ في بعثة أخـرى إلـى فرنسـا (١٥١٠) اجتـاز فيها سويسرا، وأثار حماسته الاستقلال المسلح لدولة سويسرا الاتحادية واتخذها مثلاً أعلى يريد أن يحققه لإيطاليا، ولمـا عاد من فرنسا أدرك المشكلة التي تواجههـا بـلاده كيـف تستطيع إماراتها المتفرقة أن تتحـد لتـدافع عـن إيطاليـا إذا قررت دولة متحدة مثل فرنسا أن تسـتولي علـى شـبه الجزيرة بأجمعها.

وجاءت التجربة الكبرى لحرسه الوطني قبل الأوان، ذلك أن يوليوس الثاني قد استشاط غضبا من فلورانسـا؛ لأنهـا رفضت الانضمام إليه في طرد الفرنسيين من إيطاليا، فـأمر جيوش الحلف المقدس في عـام ١٥١٢ أن تسـقط حكومـة الجمهورية وتعيد آل ميديتشي إلى العرش، وهـزم حـرس

مكيافيللي الوطني الذي عهِدَ إليه الوقوف في خط الدفاع الفلورنسي عند يرانو وولي رجاله الأدبار أمام جنود الحلف المدربين؛ واستولى جنود الحاف على فلورانسا، وانتصر آل ميدتيشي، وفقد مكيافيللي سمعته ومنصبه الحكومي، وبذل كل ما في وسعه لاسترضاء المنتصرين، وكاد سعيه أن ينجح لولا أن شابين متحمسين دبرا مؤامرة لإعادة الجمهورية، فاكتشف أمرهما ووجد بين أوراقها كشف يحتوي أسماء أشخاص يعتمدان على تأييدهم، ومن بينهم اسم مكيافيللي، فأُلْقِي القبض عليه، وعذِبَ أربع دورات، ولكنهم لم يجدوا دليلا على اشتراكه في المؤامرة فأُطْلِقَ سراحه، وخشي مكيافيللي أن يقْبضَ عليه مرة أخرى؛ فانتقل هو وزوجته وابناؤه الأربعة إلى بيته في سان كاستشيانو، حيث قضى السنين الخمسة عشر الباقية من عمره ما عدا السنة الأخيرة منها يعاني الفقر، ويعلل نفسه بالآمال، ولولا هذه الكارثة لما سمعنا به قط؛ لأن هذه السنين العجاف هي التي ألف فيها الكتب التي هزت مشاعر العالم كله.

وكانت هذه عزلة موحشة لرجل عاش في خضم بحر السياسة الفلورانسية، وكان أحيانًا يذهب إلى فلورانسا؛

ليتحدث مع أصدقائه القدامى، ويتحسس ما عسى أن يكـون هناك من فرص للعودة إلى منصبه الحكومي، وكتـب عـدة مرات إلى آل ميديتشي في هذا الموضوع، ولكنه لـم يتلـقَ منهم جوابا، وقد وصف حياته في رسـالة ذائعـة الصـيت إلى صديقه فتوري، سفير فلورانسا في روما، وأشـار فيهـا إلى سبب تأليف كتاب الأمير فقال:

لقد ظللت منذ حلت بي الكارثة الأخيرة أحيا حياة هادئـة في الريف فأصحو في مطلع الشمس، وأسـير إلـى إحـدى الغابات حيث أقضي بضع ساعات، أراجع فيها عمل الأمس، ثم أمضي بعض الوقت مع قاطعي الأشـجار وأجـد لـديهم على الدوام متاعب يفضون بها إليَ سواء كانت متاعبهم هـم أو متاعب جيرانهم، فإذا غادرت الغابة ذهبت إلى نبع مـاء، ثم إلى حظيرتي التي أصطاد منها الطيور، وتحـت إبطـي كتاب دانتي أو بترارك أو أحد الشعراء الذي هم أقل منهمـا شأنًا مثل تيبلس **أوفيـد**، وأقرأ في هذه الكتب عن عـواطفهم الغرامية وقصص حبهم، فتذكرني بتاريخ حبي أنـا، ويمـرُ الوقت وأنا مبتهج مسرور بهـذه الأفكـار ثـم آوي بعدئـذ إلى الفندق القائم على جانب الطريق، وأتحدث إلى المـارة،

وأسألهم عن أخبار الأماكن التي أقبلوا منها، وأستمع منهم إلى ما يحدثونني عنه وهو كثير، مختلف الأذواق والأوهام المستكنة في عقول بني الإنسان؛ وأصل بهذا إلى ساعة الغداء فأبتلع في صحبة مع معي ما عسى أن أجده في هذا المكان الصغير من طعام غير ذي شأن يفي به ما ورثته عن أبوي من مال قليل، وأعود بعد الظهر إلى الفندق حيث أجد في العادة صاحبه، وقصابا وطحانًا، واثنين من صانعي الطوب؛ فاختلط مع هؤلاء الأقوام الغلاظ طول النهار ألعب معهم النرد وغيره، وتثور بيننا آلاف المنازعات، ونتبادل كثيرا من السباب، ونتشاحن على أتفه النقود حتى تسمع أصواتنا في بلدة كاستيانو، ويؤدي انغماسي في هذا الانحطاط إلى ضعف قواي العقلية؛ فأصب غضبي على القدر وبلواه.

وأعود إلى داري في المساء، وآوي إلى حجرة مكتبي، وأخلع عند بابها ملابسي الريفية الملطخة بالطين والأذار، وأرتدي ثياب رجال البلاط، حتى إذا ما لبست ما يليق بي من الثياب دخلت الأبهاء القديمة لقدماء الرجال الذين يرحبون بي أحسن الترحيب، ويطعموننني الطعام الوحيد الذي أحبه وأرتضيه، والذي وِلدتُ له، ولا أستحي من التحدُّث

إليهم وسؤالهم عن بواعث أعمالهم، وتصل بهـم إنسـانيتهم إلى أن يجيبوا على أسئلتي، وأقضي على هذا النحـو أربـع ساعات لا أشعر فيها بملل ولا أذكر فيها متاعب، ولا أعـود أخشى الفقر أو أرهب الموت؛ لأن كياني قد يكون مسـتغرقًا فيهم، وإذا كان دانتي يقول إنه لا وجود لعلم دون أن يحـتفظ الإنسان بما يستمع، فقد سجلت ما حصلت عليه من حـديثي مع هؤلاء العظام وألفت منه كتيبا أسميته (الإمارة) غرقـت فيه إلى أبعد عمق أستطيعه من التفكير في هذا الموضـوع، وبحثت فيه طبيعة الإمارة وعدد أنواعها، وطريق الوصـول إليها، والاحتفاظ بها وسبب ضياعها، فإذا كنت تعني بشـيء من عبثي، فإنك لن تجد في هذا ما يسؤوك، ويجب أن يرحب به على الأخص كل أمير حديث العهد بالإمارة؛ ومن أجـل هذا أهديه إلى فخامة جوليانو في ١٠ ديسمبر سنة ١٥١٣.

ونرجح أن مكيافيللي قد اختصـر القصـة بقولـه هـذا، والظاهر أنه بدأ بوضع كتابه المسمى (أحاديث عن العشـرة كتب الأولى للبغي، وأنه لم يتم شروحه للثلاثة الأولى منهـا، وقد أهدى هذه الأحاديث إلى دسانوبي بوند يلمنتي، وكوزيمر ريتشيلي وقال: أبعث إليك بأعظم هدية أقدمها لـك؛ لأنهـا

تشمل كل ما تعلمته بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة، ويشير إلى أن آداب القدامى وقانونهم وطبهم قد بعثت من جديد ليستنير منها المحدثون في كتاباتهم وأعمالهم، وهو يقترح كذلك بعث مبادئ الحكمة القديمة وتطبيقها على السياسة المعاصرة، وهو لا يستمد فلسفته السياسة من التاريخ، ولكن يختار من التاريخ حوادث تؤيد النتائج التي قادته إليها تجاربه وأفكاره، ويأخذ أمثلته كلها تقريبا، من **ليفي**، وتؤدي به سرعته أحياناً إلى إقامة حججه على الأقاصيص، ويستعين في بعض الأحيان بمقتبسات من بوليبيوس.

ولما سار بعض الخطى في أحاديثه أدرك أنها ستطول أكثر مما يجب، وأنها لن تتم إلا بعد زمن طويل فلا تفيد في أن تكون هدية عملية لأحد الحاكمين من آل ميدتيشي؛ لهذا قطع عمله ليكتب خلاصة تضم ما وصل إليه من النتائج؛ لأن هذه تتاح لها فرصة لقراءتها أفضل من البحث المطول، وتكون أعود عليه بصداقة الأسرة القوية التي تحكم وقتئذ نصف إيطاليا.

وهكذا وضع كتاب الأصول (وهو العنوان الذي اختـاره له) في عدد قليل من شهور هذا العام، وكان ينـوي إهـداءه إلى جوليانو دي ميدتيشي، الذي كان يحكم فلورانسا في هـذا الوقت، ولكن جوليانو توفي (١٥١٦) قبل أن يصمم مكيافيللي على إرسال هذا الكتاب إليه؛ ولهذا غير صيغة الإهداء وبعث به إلى لورندسر دوق أربينو الذي لـم يرسـل إليـه ينبئـه بوصوله.

وتداولت الأيدي المخطوط، وكُتِبتْ منه عدة نسخ خلسـة، ولم يطبع إلا في عام ١٥٣٢ بعد خمس سـنين مـن مـوت المؤلف، وأصبح من ذلك الحين من أكثر مـا يعـاد طبعـه في أي لغة من اللغات.

وليس في مقدورنا أن نضيف إلى ما وصف بـه نفسـه إلا صورة له لا يعرف مصدرها محفوظـة فـي معـرض افيزي، ويظهر فيها شخصا نحيل الجسم، شـاحب الوجـه، غائر الخدين، حاد العينين أسودهما، رقيق الشفتين مطبوقهما، تنم معارفة عن رجل تفكير، أكثر مما هـو رجـل عمـل، له من الذكاء الحاد أكثر مما له من الإرادة الطبية والوداعة، ولم يكن في مقدوره أن يصبح دبلوماسيا صالحا؛ لأنه لم يكن

يسعه أن يخفي دهاءه، ولا أن يكون حاكما قديرا لأنه كـان مسرفًا في عفته، ولا أن يقبض على الأفكار بتعصب وعناد، كما يقبض في صورته على قفازيه اللذين يؤكـدان مرتبتـه نصف الأرستقراطية، وهذا الرجل الذي كثيرا ما كتب كمـا يكتب الفيلسوف الكلبي، والذي كثيرا ما تنقلب شفتاه انقـلاب الساخر المتهكم، والذي اعتاد الكذب حتى جعل الناس يظنونه يكذب حين يقول الحق، هذا الرجل كان في خبيئة نفسه وطنيا شديد الحماسة، يرى أن مصلحة الشعب هي القانون الأعلى، ويخضع كل القوانين الأخلاقية لغاية واحدة هي توحيد إيطاليا وإنقاذها مما تعانيه.

وكان يتصف بكثير من الصفات غير المحبوبة منها أنـه لما أقبلت الدنيا على بورجيا اتخذه مثلاً أعلى، ولما انصرفت عنه سار وراء الجماهير ونَدَد بالقيصر الساقط ووصفه بأنـه مجرم وعاصٍ للمسيح، ولما طُرِدَ آل ميديتشي لعنهم بأفصح عبارة، فلما عادوا إلى الحكم لعق أحـذيتهم ملتمسـا مـنهم منصبا، ولم يكن يزور المواخير قبل الزواج وبعده فحسـب، بل كان يبعث إلى أصدقائه بأوصاف مفصلة لمغامراته فيها، وإن كثيرا من رسائله لتبدو فيها الغلظة والوقاحة واضـحتين

وضوحا لم يجرؤ معه كاتب سيرته والمعجب به، الذي أطال في الترجمة له على نشرها، ولما قرب مكيافيللي مـن سـن الخمسين كتب يقول إن شباك كيوبيـد لا تـزال تقتنصـني، والطرق الوعرة لا تستنفد صبري، والليالي السوداء لا توهن شجاعتي.. إن عقلي كله لمتجه إلى الحب اتجاها أحمد عليـه فينوس..، تلك أشياء في وسعنا أن نغفرها لـه؛ لأن الرجـل لم يخلق لكي يقتصر على زوجة واحدة، ولكننا لا نسـتطيع أن نغفر له بمثل هذه السهولة عدم وجود كلمة حنان موجهة إلى زوجته في كل ما بقي لدينا من رسـائله وهـو كثيـر، وإن كان هذا مما يتفق مع سنة تلك الأيام.

ووجه قلمه البليغ في هذه الأثناء إلى أنواع من التـأليف، وبرز الأساتذة في كل نوع منها، وكان منها رسالة في فـن الحرب نشرها في عام ١٥٢٠، وأعلن فيها من برجه العاجي للدول والقواد شرائع السلطة العسكرية والنجاح، فقال:

إن الأمة التي تفقد الفضائل العسكرية أمة هالكة لا محالة، والجيش لا يحتاج إلى الذهب، بل إلى الرجال؛ لأن الـذهب وحده لا يأتي بالجند الصالحين على الـدوام ولكـن الجنـد الصالحين يأتون بالذهب، والذهب ينساب إلى خزانة الأمـة

القوية، ولكن القوة تفارق الأمة الغنيـة؛ لأن الثـراء يعمـل على الراحة والاضمحلال، ولهذا يجـب أن يظـل الجـيش مشغولاً على الدوام، فحرب صغيرة تشب من حين إلى حين تبقي العضلات العسكرية صالحة والجهاز الحربي صـالحا، متأهبا، وسلاح الفرسان جميل إلا إذا واجهته الحروب القوية، ويجب أن يعيد هذا السلاح عصب الجيش وأساسه، والجنـود المرتزقة عار يجلل إيطاليا، ودليل على تراخيها وضـعفها، وسبب من خرابها، ومن واجب كل دولة أن يكون لها حرس وطني من رجال يحاربون دفاعا عن وطنهم وأرضهم.

وأراد مكيافيللي أن يجرب حظه في القصص؛ فكتب قصة تعد من أحب الروايات للشعب في إيطاليـا، وهـي قصـة "بيلفاجور ارتشديا فولو" التي تفيض بالفكاهة والهجاء يصبها على الزواج، ثم تحوَل بعدئذ إلى كتابة المسـرحيات؛ فـألف أهم مسلاة ظهرت على المسرح الإيطالي وهـي مسـرحية "مندراجولا" وتضرب مقدمة هـذه الروايـة نغمـة جديـدة إذ يجامل فيها النقاد مجاملة لا عهد لهم بها من قبل.

إذا شاء أحد أن يبعث الخوف في قلب المؤلف بالقدح فيه، فأنى أحذره بأن المؤلف أيضا يعرف كيف يقدح، بـل إنـه

بارع في هذا الفن، وإن كان لا يحترم أحـدا فـي إيطاليـا، وإن كان ينحني ويتذلل لمن هم أحسن لباسا منه.

والمسرحية تكشف عن أخلاق عصر النهضة كشفًا يروع الإنسان ويذهله، والمكان الذي تقع فيه حوادثها هـو مدينـة فلورانسا، ومضمونها أن (كليماكو) يسمع إنسانًا يعرفه يمتدح جمال كاريدسيبا زوجة نتشياش فيقرر أنه لابـد أن يغويهـا، وإن لم يكن قد رآها من قبل، وإن لم يكن يقصـد بإغوائهـا إلا أن ينام هادئًا مستريح البال، ويقلقه أن كاريدسيبا تشـتهر بتواضعها بقدر ما تشتهر بجمالها، ولكن أمله يقوى حين يقال له إن نتشياس يتألم من أنها لا تحمل ويرشو كليماكو صديقًا له لكي يقدمه لنتشياش على أنه طبيب، ويدعي أنه سـيخلط له مزيجا يجعل في مقدور أية امرأة أن تحمل، ولكنه يعرف مع الأسف الشديد أن أي رجل يضـاجعها بعـد أن تتناولـه سيموت بعد قليل، ويعرض عليه أن يقـوم بهـذه المغـامرة المهلكة، ويرضى نتشياس أن يحل هو محله متبعا في ذلـك طيبة الخلق التقليدية التي يتصف بهـا أشـخاص القصـص لمبتكريهم، غير أن لكريدسيبا تناضل عن عفتهـا، وتتـردد في أن ترتكب جريمتين ليلة واحدة، هما جريمة الزنا والقتل،

لكن الرجاء لن يخيب كله، ذلك أنها في حرصها الشديد على أن يكون لابنتها خاف، ترشو راهبا فينصحها أثناء اعترافها بأن تنفذ الخطة، وتخضع لكريدسيبا، وتشرب الدواء، وتنام مع كليماكو وتحمل، وتختتم القصة خاتمة سعيدة لكل أشخاصها: فالراهب يطهر لكريدسيا، وينبهج نتشياس؛ لأنه أصبح له ولد مشكوك في بنوته، ويستطيع كليماكو أن ينام.

والمسرحية ممتازة في بنائها، بديعة في حوارها، قوية في هجائها، وليس الذي يثير دهشتنا فيها هو ما موضوع الإغواء الذي طالما رددته القصص القديمة حتى مللناه، وليس هو ما تحويه من تفسير الحب تفسيرا جسديا شهوانيا، بل هو المحور الذي تدور عليه؛ وهو استعداد الراهب لأن يحلل الزنا نظير خمسة وعشرين دوقة، إن المسرحية قد مثلت في عام ١٥٢٠ بنجاح عظيم أمام ليو العاشر، وقد بلغ من سرور البابا بها أن طلب من الكردينال جوليو دي ميديتش أن يعهد إلى مكيافيللي بعمل من نوع التأليف؛ فاقترح جوليو أن يكون هذا العمل هو كتابة تاريخ فلورانسا وعرض عليه في نظير ذلك ثلثمائة دوقة.

وكتب التاريخ فعلاً (١٥٢٠: ١٥٢٥)، وكاد يحدث في فن كتابة التاريخ ثورة لا تقل حدة عن الثـورة التـي أحـدثها في الفلسفة السياسية كتاب (الأمير) ولسنا ننكر أنـه كانـت في الكتابة عيوب أساسية خطيرة ذلك أن السرعة التي صدر بها جعلته عديم الدقة، وأنه نقل فقرات كبيرة عن المـؤرخين السـابقين.. وأن النـزاع بـين الأحـزاب كـان يكفـي فيه من الاهتمام أكثر مما تلقاه الأنظمة، وأنه أغفل التـاريخ الثقافي إغفالاً تاما، كما أغفله المؤرخون كلهم تقريبا قبل أيام فولتير، ولكنه كان أول تاريخ كبير كُتِبَ باللغـة الإيطاليـة، وكانت لغته الإيطالية هذه واضحة، جزلة، خالية من التعقيد، وقد رفض الخرافات التي كانت فلورانسا تجمل بها منشأها، وتخلى عن الطريقة المألوفة القديمة وهي تـاريخ الحـوادث سنة فسنة، وعمد بدلاً منها إلى الرواية المنسجمة المتصـلة المنطقية، ولم يكن يعالج الحوادث فحسب، بل كـان يبحـث في أسبابها ونتائجها، وأفاض على فوضى السياسة الفلورنسية تحليلاً للمنازعات القائمة بين الأسر، والطبقـات والمصـالح يكشف عنها ويوضحها، وقد جعل محور القصة موضـوعين يوحدان بين أجزائها:

أولهما: أن البابوات قد أبقـوا إيطاليـا مشـتتة منقسـمة على نفسها؛ لكي يحافظوا على استغلال البابويه في الشـئون الزمنية.

وثانيهما: أن ماحدث في إيطاليا من تقـدُم عظـيم كـان في عهد الأمراء أمثال ثيودريك، وكوزيمو، ولورندسو ومما يدل على شجاعة المؤلف، وكرم البابا من الناحيتين الفعليـة والمالية أن يكتب كتابا بهذه النزعة رجل يسـعى للحصـول على المال من الباب، وأن يرضى البابـا كلمنـت السـابع بأن يهدي إليه الكتاب دون أن يشكو مما جاء فيه!!.

وشغل تاريخ فلورانسا مكيافيللي خمـس سـنين، ولكنـه لم يحقق ما كانت تتوق إليه نفسه وهو عودته إلى السـباحة في مجرى الساسة الموحل، ولما أن خسر فرانسس الأول كل شيء ما عدا شرفه وحياته في بافيا (١٥٢٥) ووجد كلمنـت السابع نفسه عجازنا ضعيفا أمـام شـارل الخـامس، بعـث مكيافيللي برسائل إلى البابا وإلـى جوتشـيارديني يوضـح ما يستطاع عمله لصد الفخ الأسباني – الألماني الذي كـان يتهدد إيطاليا، ولعل اقتراحه بأن يمد البابا جيـوفتي دولـي نيري بالمال والسلطان والسلاح كان مـن شـأنه أن يؤجـل

المصير المحتوم إلى حين، ولما مـات جيـوفني وزحفـت الجحافل الألمانية على فلورانسا الحليفة الغنية لفرنسا أسـرع مكيافيللي إلى المدينة، واستجاب إلى ما طالبه كلمنت فوضع تقريرا عن الطرق التي يمكن بها إعادة أسـوارها لجعلهـا صالحة للدفاع عنها، وفي الثامن عشر مـن مـارس ١٥٢٦ اختارته الحكومة المدينتشـية ليـرأس لجنـة مـن خمسـة (أمناء على الأسوار) ليقوموا بهذه المهمة، غير أن الألمـان مروا بفلورانسا واتجهوا إلى روما، ولما نهبت هذه المدينـة، وأسر الغوغاء كلمنت، طرد الحزب الجمهوري في فلورانسا آل ميديتشي مرة أخرى من المدينة وأعـادوا إليهـا الحكـم الجمهوري (١٦/ ٥/ ١٥٢٧) وابتهج مكيافيللي لهذا العمـل؛ وطالب بمنصبه القديم (منصب أمين مجلس العشرة الحربي) وكان يرجو أن يعود إليـه لكنـه لـم يجـب إلـى طلبـه (١٠/ ٦/ ١٥٢٧) ذلك أن صلابة آل ميديتشي قـد أفقدتـه عطف الجمهورية ومعونتهم.

ولم تطل حياته بعد هذه الصدمة؛ فقد خبت فيـه جـذوة الحياة والأمل وتركته جسدا بلا روح وانتابه المرض، وكان يشكو من تقلصات شديدة في المعدة، واجتمع حـول فراشـه

زوجته، وأبناؤه، وأصدقاؤه واعترف أمام قسـيس ومـات، ولم يمض على رفض طلبه غير اثني عشر يومـا، وخلـف أسرته في الدرك الأسفل من الفاقة، وترك إيطاليا التي كـان يعمل جاهدا لتوحيدها خرابا، ودفِنَ فـي كنيسـة الصـليب المقدس حيث أقيم له نصب جميل نقشت عليه هذه العبارة.

"ليس في مقدور أي مديح أن يوفي هذا الاسـم العظـيم حقه"؛ وهو قول يشهد بأن إيطاليا التي توحدت آخـر الأمـر قد تجاوزت عن سيئاته وذكرت له أحلامه.

مكيافيللي الفيلسوف

ولنبحث الآن الفلسفة المكيفلية، بأكثر ما نستطيع من النزاهة فنقول:

إننا لا نجد عند غير مكيافيللي مثل ما نجده عنده من الاستقلال في الرأي، ومن التفكير الجريء المجرد من الخوف من عالم الأخلاق والسياسة، وإن من حق مكيافيللي أن يدعي أنه شق طرقًا جديدة في بحار لم يكد يطرقها أحدٌ قبله.

وفلسفة مكيافيللي تكاد تكون فلسفة سياسية خالصة ليس فيها شيء من فلسفة ما بعد الطبيعة ولا اللاهوت، ولا الإيمان أو الكفر، ولا بحث في الجذرية أو العذرية، وحتى الفلسفة الأخلاقية نفسها لا تلبث أن تنحني جانبا؛ لأنها بوضعها سياسة تابعة للسياسة، وتكاد تكون أداة لها، وهو يفهم الفلسفة على أنها الفن العالي الذي يراد به إيجاد دولة، أو الاستيلاء عليها، أو حمايتها، أو تقويتها، وهو يهتم بالدولة لا بالإنسانية عامة، ولا يرى في الأفراد إلا أنهم أعضاء من دولة إلا إذا نظر إليهم من حيث إنهم يساعدون على تقرير مصيرها، وهو لا يعني قط باستعراض الأفراد

على مسرح الزمان، وهو يريد أن يعرف لِمَ تنشأ الدولة وتسقط؟ وكيف يمكن تأخير اضمحلالها المحرم إلى أبعد ما يستطاع من الوقت.

وهو يرى أن فلسفة التاريخ وعلم الحكمة أمكن وجودهما؛ لأن الطبيعة البشرية لم تتبدل أبدا.

"يقول الحكماء، ولهم الحق فيما يقولون":

إن من شاء أن يتنبأ بالمستقبل، فعليه أن يرجع إلى الماضي؛ لأن الأحداث البشرية تشابه دائما أبدا أحداث الأزمنة الماضية.. ومنشأ هذا التشابه، أنها ثمرة أعمال خلائق كانوا، ولا يزالون، وسيكونون على الدوام، تحركهم نفس العواطف والانفعالات؛ ولهذا فإن هذه العواطف والانفعالات لا بد أن تكون النتائج نفسها.

وأنا أعتقد أن العالم كان هو بعينه على الدوام، وأنه كان يحتوي دائما كما الآن من خير وشر، وأن كان هذا الخير وذاك الشر يختلف توزيعهما بين الأمم باختلاف الأوقات".

وظاهرتا نشأة الحضارات والدول واضمحلالها من أكثر الظواهر المتتابعة المنتظمة دلالة في التاريخ.

وهنا يواجه مكيافيللي مشكلة معقدة غاية التعقيـد بقـانون بسيط غاية البساطة فيقول:

"الشجاعة تنتج السلم، والسلم ينتج الراحة، والراحة تستتبع الفوضى، والفوضى تؤدي إلى الخراب، ومن الفوضى ينشـأ النظام، والنظام يؤدي إلى الشجاعة، ومن هذه ينَـالُ المجـد والحظ الحسن، ومن أجل هذا قال الحكماء إن عهـد السـمو الأدبي يأتي في أعقاب التفـوق الحربـي، وإن المحـاربين العظام ينشاءون قبل الفلاسفة، وقد تكون هناك أسباب أخرى لنشأة الأمم واضمحلالها غير الأسباب العامة وهـي عمـل القادة والزعماء من الأفراد، وتأثيرهم، ومن ذلك أن مطـامع الحاكم المتطرفة، التي تعميه فلا يرى أن مـوارده لا تكفـي لتحقيق أغراضه، وقد تكون سببا في خراب دولته؛ إذ تجرها إلى الاشتباك في الحرب مع دولة أعظم منها قـوة، وللحـظ والمصادفات كذلك أثر في قيام الدولة وسقوطها، "فالحظ هو الذي يتحكم في نصف أعمالنا، ولكنه يترك لنا من ذلك القدرة على توجيه النصف الآخر" وكلما كثـر نصـيب الإنسـان من الشجاعة قل خضوعه لتقلبات الحظ واستسلامه له.

وتاريخ دولة ما يتبع قوانين عامة يحـددها مـا تنطـوي عليه طبيعة الناس من خير وشر، والناس كلهـم بطبيعـتهم مخادعون، مخاصمون، قساة، فاسدون.

ومن أراد أن ينشئ دولة، ويضع لها قوانين، فليفتـرض من بادئ الأمـر أن النـاس جميعـا أشـرار، مسـتعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل، فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثـة مختفيـة إلى حين، فيجب أن يعزَى اختفاؤها هذا إلـى سـبب غيـر معروف، ومن واجبنا أن نفترض أنها لـم تجـد الظـروف الملائمة للكشف عن نفسها، ولكن الزمن لن يعجزه الكشـف عنها، والرغبة في الاقتناء من الغرائـز الفطريـة العامـة في واقع الأمر، والناس جميعا يفتنون حين يستطيعون؛ ولهذا فإنهم يمدَحون على ذلك ولا يلامون عليه".

وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريقة الوحيدة لجعل النـاس قادرين على العيش بنظام في مجتمع هي أن يطبـق علـيهم القسر، والخداع، والاعتياد واحدا بعد آخر؛ ومن هـذا تنشـأ الدولة:

تنظيم القوة على يد الجيش والشرطة، ووضع القواعد والقوانين، وتكوين العادات تدريجيا للاحتفاظ بالزعامة من الجماعة البشرية، كلما كانت الدولة أكثر نماء، قلت الحاجة إلى استخدام القوة أو ظهورها فيها، واكتفى بدلاً منها بالتعليم وغرس العادات؛ لأن الناس يكونون في يد المشروع أو الحاكم القدير أشبه بالصلصال اللين في يد المثال.

والدين خير وسيلة لتعويد الناس الذي فُطِرُوا على الشر والخضوع إلى القانون والنظام.

ويكتب مكيافيللي الذي يسميه – باولو – أحد المعجبين به "الكافر الهجاء" عن الدين في حماسة بالغة يقول: "لم تزَ الآلهة أن الشرائع التي وضعها روميولوس كافية لروما، وإن كان هذا الأمير هو الذي أنشأها؛ ولهذا أوحت إلى مجلس الشيوخ الروماني أن يختار نوفا بميلبوس خليفة له، ووجد نوفا شعبا متوحشًا أشد التوحش أراد أن يغرس فيه عن طريق فنون السلم عادة الطاعة العمياء؛ فلجأ إلى الدين الذي رآه أقوى مؤيد للمجتمع المدني وألزمه، فأفاق على أسس بلغ من قوتها أن مضت قرون طوال دون

أن يوجد في مكان ما خوف من الآلهة أكبر مما كان في هذه الجمهورية، وقد يسر هذا تيسيرا كبيرا في جميع المشروعات التي حاول القيام بها مجلس الشيوخ، وكبار أعضائه.

وقد ادعى نوما أنه قد تحدّث إلى إحدى الحـور، وأنهـا أملت عليه كل ما يريد أن يقنع به الناس، والحق أن لم يوجد قط مشرع عظيم.. لم يلجأ إلى القوة الإلهية، وإلا لما أطـاع الناس شرائعه؛ لأن ثمة شرائع صالحة كثيرة يدرك المشرع الحكيم أهميتها ولكن أسباب وضعها لا تتضح للناس وضوحا يكفي لأن يمكنه من إقناع غيره من الناس بإطاعتها، وهـذا هو السبب الذي يجعل العقلاء من الناس يلجئون إلى السلطة الإلهية ليتغلبوا على هذه الصعوبة، واتباع الأنظمة الدينية هو سبب عظمة الجمهوريـات، وإهمـال هـذه الـنظم يـؤدي إلى خراب الدول، وذلك أنه إذا انعدم من بلد ما خـوف الله، قُضِي على هذه البلد لا محالة، إلا إذا دعمه خـوف الأميـر وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينقص هـذا البلد من خشية الله.. لكن حياة الأمراء قصيرة.

وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم.. وجب عليهم قبل كل شيء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية وأن ينظـروا

إليها باحترام، وهذا بعينه يصدق على الجمهوريـات، فهـي لا بقاء لها إلا إذا حافظت على هذا النقاء، ووجهت إلى تلـك الشعائر هذا الاحترام نفسه.. وأكثر من يستحق الثناء ممـن نالوا هذا الثناء هم الذين أنشأوا الأديان وأقاموهـا، ويلـيهم في هذا الذين أقاموا الجمهوريات أو الممالك، وأعظم النـاس بعد هؤلاء أولئك هم الذين قادوا الجيوش ووسـعوا أمـلاك بلادهم، وقد نضيف إليهم رجال الأدب، وعكس هـذا أيضـا صـحيح. فالـذين يهـددون صـرح الـدين ويقضـون على الجمهوريات والممالك والـذين هـم أعـداء الفضـيلة والآداب، أولئك يجللهم العار، وتصبُّ عليهم اللعنـات مـن الناس أجمعين.

وبعد أن ارتضى مكيافيللي الـدين بوجـه عـام انتقـل إلى الدين المسيحي؛ فأخذ يوجه إليه أشد النقد لأنـه عجـز عن إيجاد مواطنين طيبين، ذلك أنه حول أكثـر مـا يجـب تحويله من العناية إلى السـماء، وأضـعف النـاس إذ أخـذ يدعوهم إلى الفضائل السوية وفي ذلك يقول..

إن الدين المسيحي يدعونا إلى الاستخفاف بحـب الـدنيا، ويجعلنا أكثر رقة ولينًا، أما القدماء فكانوا عكس هذا العالم..

كانوا يجدون أعظم أسباب بهجتهم في هذا العالم ولـم يكـن دينهم يقدس إلا الذين يتوج هاماتهم مجد هذا العالم الأرضي، كقواد الجيوش، ومؤسسي الجمهوريات، على حين أن ديننـا نحن قد مجد الوادعين الذين يقضون زمـانهم فـي التأمـل والتفكير بدل أن يمجد رجال العمل، وقد جعل هـذا الـدين أعلى درجات الخير والذلة، وضـعف العزيمـة، واحتكـار الأمور الدنيوية، أما الدين القديم فكان يجعل أعلى درجـات الخير عظم العقل، وقوة الجسم، وكل ما يبعث فـي النـاس الإقدام والجرأة.. ومن أجل هذا خرَ العـالم صـريعا أمـام الأشرار، فقد وجد هؤلاء الناس أكثـر اسـتعدادا للخضـوع إلى الضربات؛ طمعا منهم في دخول الجنة بـدل أن يـردوا عليها بمثلها.

"ولو أن الدين المسيحي قد أُحتُفِظَ به حسب القواعد التـي وضعها له مؤسسه، لكانت الدول والبلاد المسـيحية أقـوى اتحادا وأكثر سعادة مما هي الآن، وهل ثمة أدل على ضعفها وانحلالها من أن أقرب الشعوب إلى الكنيسة الرومانية، وهي رأس هذا الدين، أقلها تدينًا، ومن يبحث المبادئ التي يقـوم عليها هذا الدين ويرى البون الشاسع بين هذه المبادئ وبـين

أساليبها الحاضرة وشعائرها، يحكم من فوره أن انهيار هـذا الدين أو مصيره المحتوم آتٍ غير بعيد، ولعل الدين المسيحي كان يقضي عليه قضاء لا مرد له بسبب ما فيه مـن فسـاد لو لم يرد إليه القديسان فرانسيس ودمنيك مبادئه الأصـلية، وإذا شئنا أن نضمن للطوائف أو الجمهوريات الدينية حيـاة أطول وأبقى وجب أن نرجع بها مرارا وتكرارا إلى مبادئها الأولى الأصلية.

ولسنا نعرف هل كُتِبت هـذه الألفـاظ قبـل أن تصـل إلى إيطاليا أنباء الإصلاح الديني أو بعد وصولها إليها.

ويختلف خروج مكيافيللي على المسيحيين عـن خـروج فولتير وديدو، ودارون، وسبنسـر، ورينـان عليهـا؛ ذلـك أن هؤلاء الرجال كانوا يرفضون لاهوت المسيحيين ولكـنهم يحتفظون بالقانون المسيحي الأخلاقي ويعجبون به، وظلـت هذه الحالة قائمة إلى أيام نيتشه ولطفت (حدة النزاع القائم بين الدين والعلم).

أما مكيافيللي فلا يشغل بالـه بالعقائـد الدينيـة وبعـدها عن المعقول؛ فهو يرى هذا البعـد أمـرا طبيعيـا ويأخـذه على أنه قضية مسلم بها، ولكنه يقبل اللاهوت المسيحي قبولاً

حسنًا بحجة أن نظاما ما من المعتقدات التي فوق الطبيعة هو دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي، أما الـذي يرفضـه من المسيحية رفضا باتًا فهو مبادئها الأخلاقية، ومـا تـراه أن الصلاح والخير هما الرقة والذلـة، والاستسـلام وعـدم المقاومة، وحبها للسـلم وتنديـدها بـالحرب، وافتراضـها أن الدول والأفراد مرتبطون بقانون أخلاقـي واحـد، وهـو يفضل على هذه المبادئ القانون الأخلاقي الروماني.. القـائم على المبدأ القائل إن سلامة الشعب أو الدولة هـي القـانون الأعلى: "وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنـا وخيرهـا، وجب علينا ألا نقبل البحث في العـدل أو الظلـم والرحمـة أو القسوة، وما هو خليـق بالثنـاء أو الازدراء بـل يجـب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتهـا، وننحـي كـل ما عدا هذا جانبا".

ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هـي إلا قانونًـا للسـلوك وضِعَ لأفراد المجتمع أو الدولة لحفـظ النظـام الجمـاعي، والوحدة والقوى، وأن حكومة تلك الدولة تعجـز عـن أداء واجبها، إذا كانت وهي تدافع عن الدولة تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقي الذي يجب عليها أن تغرسه فـي نفـوس

شعبها؛ ومن ثمّ فإن الدبلوماسي غير مقيد بالقانون الأخلاقـي الذي يتقيد به شعبه.

"فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر له نتيجـة هـذا العمل ذنبه"؛ ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة، ومـا مـن رجـل صالح يلوم رجلاً غيره يحاول أن يدافع عن بلاده أيا كانـت السبيل التي يسلكها لهذا الدفاع"؛ فضروب الغـش والقسـوة، والجرائم، التي يرتكبها في سبيل الاحتفـاظ بدولتـه كلهـا "غش شريف" و"جرائم مجيدة"؛ ومن ثم فإن روميولوس كان على حق حين قتل أخاه لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلـب الوحدة وإلا فرقت إربا. وليس ثمة قانون طبيعـي أو حـق متفق عليه من الناس جميعا، والسياسة إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالاً تاما.

وإذا ما طبقنا هذه المبادئ على قانون الحرب الأخلاقـي، فإن مكيافيللي واثق كل الثقة من أنها تجعل نزعـة السـلام المسيحية سخفًا، وخيانة، ذلك أن الحـرب تنـاقض وصـايا موسى كلها تقريبا؛ فهي تجيز القسم والكذب والسرقة والقتل، وارتكاب الزنـا آلاف المـرات ولكنهـا إذا مـا حافظـت على المجتمع، أو كانت سببا في تقويته، فهـي خيـر، وإذا

ما توقفت الدولة عن التوسع أخذت في الاضمحلال، وإذا فقدت الرغبة في الحرب فقُلْ عليها السلام، والسلام إذا طال فوق ما يجب يؤدي إلى الضعف والتكفك؛ لذلك كانت حرب تدور بين الفينة والفينة مقوية للقوميه، تعيد للأمة النظام والشدة، والوحدة ولهذا فإن الرومان في عهد الجمهورية كانوا دائما مستعدين للحرب، فإذا رأوا أنهم مقبلون على نزاع مع دولة أخرى، لم يفعلوا شيئًا يجنبهم الحرب، بل أرسلوا جيشًا ليهاجم فيليب في مقدونيا، وانطونيوخوس الثالث في بلاد اليونان، ولم ينشط حتى يأتي هذا المليكان بشرور الحرب إلى أرض إيطاليا، ولم يكن الروماني يرى أن الفضيلة هي الذلة، أو الرقة أو السلام، بل كان يرى أنها القوة والرجولة، والبسالة، مضافةً إلى النشاط والذكاء.

ثم ينتقل مكيافيللي من هذه النظرة إلى نظرة الحاكم المتحرر من القيود الأخلاقية ليواجه ما كان يبدو له أنه هو المشكلة الأساسية في أيامه: وهي أن يحصل لإيطاليا على الوحدة والقوة اللتين لا غنى لها عنهما لنيل حريتها الجماعية.

وهو يرى بعين المقت ما يسـود بـلاده مـن الانقسـام والاضطراب والفساد والضعف: وهنا نرد ما كان في أيـام بترارك جد نادر – نرى رجلاً لا يؤدي تفانيه من حب فطرة إلى أي نقص في حب مدينته – فإذا ما بحث عن الذي تقـع عليه تبعا بقاء إيطاليا مقطعة الأوصال، ضعيفة بسبب ذلـك أمام العدو، قال:

لا تستطيع أمة من الأمم أن تكون متحدة وسـعيدة إلا إذا كانت تطيع حكومة واحدة سواء كانت جمهورية، أو ملكيـة، كما هي الحال في فرنسا وأسبانيا، والسبب الوحيد الذي يمنع إيطاليا من أن تكون هذه حالهـا هـو – الكنيسـة – ذلـك أنها قد حصلت لنفسها على سلطان زمني، واحتفظـت بهـذا السلطان، لم تؤتِ في يوم من الأيام من القوة أو الشـجاعة، ما يكفي لأن يجعلها قادرة على الاستيلاء على بقيـة الـبلاد وفرض سيادتها الوحيدة على إيطاليا بأجمعها.

وهنا تبدو لنا فكرة جديدة: تلك هي أن مكيافيللي لا يهاجم الكنيسة لأنها تدافع عن سـلطتها الزمنيـة، بـل يهاجمهـا لأنها لم تستخدم مواردها لإخضاع إيطاليـا كلهـا لحكمهـا السياسي.

ومن أجل هذا أعجب مكيافيللي بسيزاري بورجيا في إمولا، وسبنجاليا؛ لأنه ظن أنه وجد في هذا الشاب القاسي فكرة إيطاليا المتحدة وآمالها، وكان على استعداد لأن يبرر أي وسيلة يستخدمها آل بورجيا ليحققوا بها ذلك الهدف الأسمى النبيل، وربما كان خروجه على سيزار بورجيا حين خرج عليه في روما (١٥٠٣) وبسبب غضبه من أن معبوده هذا قد سمح بأن تقضي كأس من السم (كما كان مكيافيللي يظن) على هذا الحلم اللذيذ.

وكان قد مضى على إيطاليا قرنان من الزمان وهي مقسمة مشتته، سببا لها من الضعف والانحلال الاجتماعي ما لم يكن لينجيها منها (في رأي مكيافيللي) إلا أشد الوسائل عنفًا؛ فلقد عمَّ الفساد الحكومات والشعب، وحلت الرذائل الشهوانية محل الروح الحربية والمهارة العسكرية، وعهد المواطنون إلى غيرهم – كما عهدوا إليهم أيام احتضار روما القديمة – عهدوا إلى الجيوش المرتزقة، كما عهدوا أولئك إلى البرابرة – أن يدافعوا عن مدنهم وأرضهم، وماذا يهمُّ تلك العصابات الماجورة أو يهم زعماءها من وحدة إيطاليا؟

إنهم يعيشون ويتخمون بسبب انقسـامها..، لقـد اتفقـوا فيما بينهم على أن يتخذوا الحرب لعبة لا تقـل لهـم أمنًـا عن السياسة، فجنـودهم لا يقبلـون بحـال مـن الأحـوال أن يعرضوا أنفسهم للقتل، وإذا ما التقوا بالجيوش الأجنبيـة ولوا الأدبار، وأنزلوا إيطاليا منزلة الاسترقاق والاحتقار.

وإذن من ذا الذي يوحد إيطاليا؟

وكيف السبيل إلى هذه الوحدة؟

السبيل إليها هي الإقنـاع بالوسـائل الديمقراطيـة ذلـك أن الرجال متطرفون في نزعتهم الانفرادية، وفي حـزبيتهم، وفسادهم، مما يحول بينهم وبين قبول الوحدة قبـولاً سـليما، ومثلهم في ذلك مثل المدن نفسها؛ ولهذا فإن هذه الوحدة لا بد أن تُفْرضَ علـيهم بجميـع وسـائل السياسـة والحـرب، ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا غير الطاغية القاسي الذي خلا قلبه من الرحمة، والذي لا يسـمح لضـميره بـأن يجعـل منه إنسانًا جبانًا، بل يضرب بيد من حديد، ويجعـل هدفـه العظيم يبرر كل ما يلجأ إليه من الوسائل.

ولسنا واثقين من أن هذا هو المزاج الذي ألف به كتـاب الأمير، وشاهد ذلك أن مكيافيللي كتب إلى صديق له في عام

١٥١٣ أي في العام الذي يبدو أنه شرع يكتب فيه هذا الكاتب يقول:

إن فكرة الوحدة الإيطالية فكرة مضحكة، ذلك أنـه حتـى لو استطاع رؤساء الدول الإيطالية أن يتفقوا فإنا ليس لـدينا من الجنود من لهم من القيمة غير الجنود الأسبان، يضـاف إلى هذا أن الشعب لا يمكن أن يتفق في يـومٍ مـن الأيـام مع الزعماء، لكن حدث في ذلك العـام نفسـه عـام ١٥١٣ أن جلس ليو العاشر على كرسي البابوية، واتحدت فلورانسا وروما تحت سلطان آل ميديتش بعد أن ظلتا عدوتين زمنًـا طويلاً، ولما أن بدل مكيافيللي صيغة (إهداء كتابـه فجعلهـا للورندسو، دون أربينو، كانت هذه الدول أيضا قـد سـقطت في يد آل ميديتشي ولم يكن الدوق الجديد قد تجاوز الرابعـة والعشرين من عمره في عام ١٥١٦ – وكان قد أظهر غيـر قليل من الطموح والبسالة – وكـان مـن حـق مكيـافيللي أن نسامحه إذا نظر إلى هذا الشاب المتهور على أنـه هـو الذي يستطيع بهداية ليو ودبلوماسيته (واتباع تعاليم مكيافيللي) أن يحقق ما بدأه سيزاري بورجيا بإرشاد الكسندر السـادس؛ أي أن يقود الدول، الإيطالية، أو في القليل الـدول الواقعـة

فيها شمال نابولي مع استعباد دولة البندقية المتكبرة، بعد ضمها في اتحاد له من القوة ما يقلل عزيمة الغزاة الأجانب.

وإن إهداء كتاب الأمير لآل ميديتشي ليدل على أن المؤلف كان يظن مخلصا أن هذه الأسرة هي التي ممكن أن تحقق وحدة إيطاليا، وإن كان الغرض الأول من هذا الإهداء في أغلب الظن هو أن يكون وسيلة لإيجاد منصب بها يشغله مؤلفه.

وكان شكل كتاب الأمير هو الشكل التقليدي؛ فقد أفرغ في القالب الذي أفرغت فيه مائة من الرسائل في العصور الوسطى خاصة بحكم الأمراء، وسار على الطريقة التي أُتبِعت في هذه الرسائل، أما في محتوياته فقد كان ثورة لا شك فيها، فلم توجه في الكتاب دعوة مثالية إلى أمير من الأمراء ليكون قديسا ولم يطلب منه أن يطبق ما جاء في موعظة الجبل على مشاكل العروش – بل نراه على عكس ذلك يقول:

لما كنت أقصد أن أتبع حقيقة الأمور الصحيحة من أن أجري وراء الخيال، لقد صوَر كثيرون جمهوريات

وإمارات لم تعرف أو ترى في يوم من الأيـام؛ لأن البعـد شاسع بين الطريقة التي يعيش بها الإنسان والطريقـة التـي يجب أن يعيش بها، ومن أجل ذلك فإن من يهمل مـا يفعـل في سبيل ما يجب أن يفعل يجر نفسه على الخراب بأسـرع ما يتحفظ لنفسه بالبقاء – وإن الرجل الذي يريد أن يعمـل حسب ما يجهز فإنه هو الفضيلة لا يلبث أن يلقي الوبال بين ما يحيط من السرور من كل جانب؛ ومن ثـم كـان لا بـد للأمير الذي يريد أن يحتفظ بمركزه أن يعرف كيف يرتكـب الخطأ، وأن يغير منه أو لا حسبما تدعو إليه الحاجة.

ولهذا فإن من واجب الأمير أن يفرق في قوة وحزم بـين المبادئ الأخلاقية ومطالب الحكـم.. أي ضـميره الخـاص والصالح العام، وأن يكون مستعدا أن يعمل من أجل الدولـة ما يسمى شرا من علاقة الأفراد بعضـهم بـبعض، ويجـب عليه أن يزدري أساليب التردد والضعف التي لا تبلغ الإنسان الغرض كاملاً، والأعداء الذين لا يستطاع كسـب صـداقتهم يجب القضاء عليهم، ومن واجـب الأميـر أن يقتـل مـن ينازعونه عرشه، ولا بد لـه أن ينشـئ قويـا لأن الحـاكم لا يستطيع أن يتحدث بصوت أعلى مـن صـوت مدافعـه،

ومن واجبه أن يحافظ دائما على صحة جنود وحسن نظامهم، وعدتهم، وأن يعد نفسه للحرب بأن يعرض نفسه في كثيـر من الأحيان لصعاب الصيد وأخطاره، وعليه في الوقت نفسه أن يدرس فن الدبلوماسيين؛ لأنه يستطيع أن يحصل بـالمكر والخداع في بعض الأحيان أكثر مما يسـتطيع أن يحصـل عليه بالقوة وقد لا يكلفانه ما تكلفه، ويجب عليه الا يتمسـك بالمعاهدات إذا أصبحت تجلب الضرر للأمة، "والسيد العاقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ علـى العهـد إذا كـان في وسع أعدائه أن يتخذوا محافظته هـذه سـلاحا لإيذائـه، وإذا ما زالت الأسباب التـي جعلتـه يقطـع هـذا العهـد على نفسه".

ولا غنى للأمير عن قسط من تأييد الشعب، ولكن إذا كان لا بد للحاكم أن يختار بين أن يخافه الشعب دون أن يحبـه، وبين أن يحبه دون أن يخافه، وجب عليه أن يضحي بالحب؛ لأن حكم الجماهير بالرأفة والرقة أسهل من حكمها بالغطرسة والقسوة، وشاهد ذلك أن الأباطرة تيتوس، ونيرفا، وترجان، وهدريان، وأنطونيوس، وماركس، لم يحتاجوا إلى الحـرس البريتوري، ولا إلى الفيالق الحربية لحمايتهم؛ لأنهـم كـانوا

يحتمون بسلوكهم الطيب، وبإخلاص شعبهم، وبحب مجلـس الشيوخ لهم.

ومن الوسائل التي يحصل بها الأمير على تأييد الشـعب أن يناصر الفنون والعلوم، وأن يهييء له الحفلات والألعـاب العامة ويكرم أهل الحرف بشرط أن يحـتفظ علـى الـدوام بجلال مركزه، ويجب ألا يهـب النـاس الحريـة، ولكـن من واجبه أن يمتعهم قـدر المسـتطاع بمظـاهر الحريـة، وعليه أن يعامل المدن التابعة له كمـدينتي أرتسـو وبيـزا التابعتين للبندقية؛ بالشدة والعنف، بل وبالقسـوة فـي بـادئ الأمر، فإذا ما استقرت له الأمور وأطاعه أهل هـذه المـدن أمكنه أن يجعل خضوعهم له أمرا عاديـا مألوفًـا بأسـاليب اللطف والمجاملة؛ لأن القسوة إذا طالت وعمت أهل المـدن الخاضعة كانت بمثابة انتحار لمن يلجأ إليها.

وعلى الحاكم أن ينشر الدين، وأن يظهر هو نفسه بمظهر الرجل المتدين أيا كانت عقائده الخاصة، والحق أن تظـاهر الأمير بالفضيلة أهم وأفيد له من أن يكون فاضلاً بحق.

إن تظاهر الأمير بالفضائل كلها نافع له، وإن لـم يكـن من الضروري أن يتصف بها؛ فعليه مثلاً أن يتظـاهر بأنـه

رحيم، وفي، شفوق، متدين، مخلص، وممـا يفيـده أيضـا أن يتصف بهذه الصفات، على أن يكون ذا عقل مرن يمكنه إذا دعت الحاجة من أن يتصف بعكسها.. وعليـه أن يحـذر من أن ينطق بكلمة لا تنطبق عليها الصفات الخمس السـابقة الذكر، ويجب أن يبدو لمن يرونـه، ويسـتمعون لـه كأنـه الرحمة، والإيمان والتدين والاستقامة مجسمة، وعلى الإنسان أن يلون سلوكه، وأن يكون مرائيا؛ لأن الناس سذج منهمكون في حياتهم الحاضرة، إلـى حـد يسـهل معـه خـداعهم.. وفي مقدور كل إنسان أن يرى مظهرك ولكن قل من النـاس من يعرف حقيقة مخبرك، وأولئك النفر القلائل لا يجـرءون على مخالفة رأي الكثرة فيك.

ويضرب مكيافيللي لهذه الحكمة أمثلة واقعية؛ فيذكر نجاح الإسكندر السادس، ويرى أن هذا النجاح يرجع كله إلى كذبه المدهش الذي يستثير الإعجاب، ويعجب بفرديناند الكاثوليكي ملك أسبانيا؛ لأنه كان يظهر دائما بمظهر المدافع عن الـدين في مغامراته الحربيـة، ويمـدح الوسـائل التـي ارتقـى بها فرانتشيكو اسفوردسا عرش مـيلان، وهـي الشـجاعة الحربية والمهارة في الأساليب العسكرية منضمة إلى الـدهاء

الدبلوماسي، ولكن أعظم مثل يضربه، وهو مثل يكـاد يبلـغ في اعتقاده حد الكمال.. هو سيزاري بورجيا.

إذا استعدنا في ذاكرتنا جميع أعمال هـذا الـدوق فـإني لا أعرف عملاً منها يستحق عليه اللوم، بل إنه ليبدو لي أني أضعه أمام الناس لكي يقلده كـل مـن يقبضـون بأيـديهم على أزمة الحكم، لقد كانوا يحسبونه قاسيا، ولكن قسوته هي التي أزالت الخلاف من رومانيـا كلهـا وضـمت شـتاتها، وأعادت إليها السلم والولاء، ولقد أوتي روحا عالية، وآمـالاً كبارا، لم يكن يستطيع بغيرها أن ينظم مسلكه، ولم يحلْ بينه وبين تحقيق أغراضه إلا قصر حياة الإسكندر، ومرضه هو، ولهذا فإن من شاء أن يضمن لنفسه الأمان في إمارته الجديدة ويكسب الأصدقاء، ويغلب الأعداء بالقوة أو الخداع ويبعـث في قلوب الناس حبه والخوف منه في آن واحـد وأن يؤيـده الجند ويجلوه، ويبيد من أوتوا قوة يستطيعون بها أن يـؤذوه، أو كانت لديهم أسباب تدعوهم إلى هذا الإيـذاء، ويسـتبدل بنظام الأشياء القديم نظاما جديدا، وأن يكون قاسيا وكريمـا، نبيلاً وحرا، ويحطم قوة الجند غير الموالين له وينشئ بدلهم جيشًا جديدا، ويحتفظ بصداقة الملوك والأمراء بحيث يـرون

أن من واجبهم أن يخفوا لمعرفته متحمسـين، فـإذا فكـروا في أذاه كانوا حذرين – من شاء هذا فإنه لن يجد مثلاً أروع من أعمال هذا الرجل".

وكان مكيافيللي يعجـب ببورجيـا؛ لأنـه كـان يشـعر بأن أساليبه وأخلاقه تمهد السبيل إلى توحيد إيطاليـا، وأنهـا لم تَحلْ بينها وبين بلوغ تلك الغاية إلا ما صحبها من مرض البابا وولده، وهو يتوسل في ختام كتابه الأمير إلى لورندسو الدوق الشاب ويتوسل عن طريقه إلـى ليـو آل ميديتشـي، أن يعملوا على توحيد شبه الجزيرة، وهو يصف أهل بـلاده بأنهم مستبعدون أكثر من العبرانيين، وأنهم يعانون من الظلم أكثر مما يعانيه الفرس، وأنهم مشتتون أكثر مـن الاثنـين، وأنهم قوم لا رئيس لهم، ولا نظام، مهزومـون منتهيـون، ممزقون، تحتاج بلادهم الجيوش الأجنبية؟

ولقد أصبحت إيطاليا وكأنها مسلوبة الحياة تنتظر من يقبل عليها ليأسو جراحها.. وتدعو الله أن يقيض لها من ينجيهـا من هذه المظالم وهذه المخازي التي يوقعها عليها الأجانب.

إن الموقف جد خطير، ولكن الفرصـة مواتيـة؛ "ذلـك أن إيطاليا متأهبة راغبة في أن تسير وراء العلم إذا ما رفعه

إنسان ما". ومن أحق برفعه من آل ميديتشي أشـهر الأسـر كلها في إيطاليا، والتي تتزعم الكنيسة في هذه الأيام؟ "ومن ذا الذي يستطيع أن يعبر عن الحب الذي سوف يفيض به قلـب إيطاليا وهي ترحب بمحررها، أو عـن تعطشـها للانتقـام من أعدائها، أو عن إيمانها القوى، وإخلاصها ودموعها؟

وأي باب يمكن أن يغلق في وجهه؟

ومن الذي يضن عليه بالطاعة؟

إن هذا السلطان الأجنبي الهمجي الذي نرزح تحته لتزكم رائحته الكريهة أنوفنا، فليتولّ إذن بيتكم المجيد هذه المهمـة وليستعن على القيام بها بالبسالة والأمل اللذين يتذرع بهما كل من يقوم بمغامرة عادلة حتى تسمو تحت علـم هـذا البيـت مكانة بلادنا، وتحقق بفضل رعايتها تلك الكلمات التي كتبهـا بترارك.

"إن ذوي الرجولة يمتشقون الحسام ليقاتلوا ذوي الجنـة، وستكون المعركة جد قصيرة؛ لأن البسالة القديمة لم ينضـب بعد معينها في عروق إيطاليا".

تأملات

وهكذا وجهت إلى آل ميديتشي تلك الدعوة التي وجهها دانتي وبترارك إلى الأباطرة الأجانب، والحق أنه لو أن ليون عاش أطول مما عاش، ولعب أقل مما لعب، لشهد مكيافيللي بداية تحرر إيطاليا عام ١٥٢١، وفي عام ١٥٢٧ وهو العام الذي توفي فيه مكيافيللي، كان قد تم خضوع إيطاليا لدولة أجنبية، وكان لابد أن يتأخر ذلك التحرر ٣٤٣ سنة حتى يحققه كافور بأساليب مكيافيللي في الحكم.

ويكاد الفلاسفة يجمعون على التنديد بكتاب الأمير، كما يكاد الحكام يجمعون على العمل بما فيه من حكم، وبدا غداة نشره ١٥٣٢ ظهور ألف كتاب تعارضه، لكن شارل الخامس درسه بعناية وجاءت به كاترين ده ميديتشي إلى فرنسا، وكان مع هنري الثالث وهنري الرابع ملكي فرنسا وقت وفاتهما، وكان ريشليو يعجب به، ووليم أورنج يضعه تحت وسادته كأنه يري أن يستظهره بطريق النضج، وكتب فردريك الأكبر ملك بروسيا كتابه ضد مكيافيللي؛ ليجعله تمهيدا لكتاب يتجاوز فيه ما ورد في كتاب الأمير، ولم يكن معظم الحكام يرون بطبيعة الحال أن هذه التعاليم وحي جديد

إلا إذا فهمنا لفظ الوحي، إنها تكشف في غير حكمة أو حذر أسرار طائفتهم.

أما الحالمون الذين حاولوا أن يجعلوا من مكيافيللي ثـائرا لا كاليعقوبيين، فقد خُيل إليهم أنه لم يكتـب الأميـر ليعبـر عن فلسفة، بل كتبه من أجـل السـخرية ليكشـف للنـاس عن أساليب الحكام وحيلهم، بيد أن كتاب العظات ينطق بهذه الآراء نفسها ويبسط القول فيها، وقد جرؤ فرانسـس بـيكن فكتب هذه العبارة يصفح بها عن مكيافيللي:

"إنا لنشكر مكيافيللي وأمثاله من الكُتاب الـذين أظهـروا لنا صراحة وفي غير خداع اعتاد الناس أن يفعلوه".

وأما حكم هيجل فكان دلالة على الذكاء والكـرم، كثيـرا ما أخرج كتاب الأمير في رعب؛ لأنه يحتوي حكما وأمثـالاً تدعو إلى أشد أنواع الاستبداد وأدعاها إلى الاشمئزاز، ولكن الحقيقة أن شعور مكيافيللي القوي بضرورة قيام دولة موحدة هو الذي دعاه إلى وضع المبادئ التي لا يمكن أن تقوم دولة في الظروف المحيطة به وقتئذ إلا على أساسها.. فقـد كـان لا بد من القضاء على الأمراء والإمـارات القائمـة وقتئـذ، وإنا وأن كان رأينا في ماهية الحرية لا يتفق مـع الوسـائل

التي يشير بها.. والتي تشمل أشد أنـواع العنـف وأكثرهـا تطرفًا، وجميع صنوف الخـداع والاغتيـال، ومـا إليهمـا – فلا يسعنا إلا أن نقرّ أن الطغاة الذين لابـد مـن قهـرهم لم يكونوا ليغلبوا بغير هذه الوسائل.

كذلك صوّر مكولي في مقال له ذائـع الصـيت فلسـفة مكيافيللي على أنها انعكاس طبيعي لإيطاليا المتوقدة الـذكاء، الفاسدة الأخلاق، التي عوّدها حكامها المستبدون مـن زمـن بعيد مبادئ كتاب الأمير.

ويمثل مكيافيللي آخر صور من تحدي الوثنية المنتعشـة التي عادت إلـى الحيـاة للمسـيحية المستضـعفة، والـدنيا في فلسفته يصبح مرة أخرى بما كان في روما القديمة خادعا ذليلاً للدولة، حلت في واقع الأمر حمل الله فالفضـائل التـي يعظها مكيافيللي هي الفضائل الرومانية الوثنية دون غيرها: الشجاعة ، والصبر، والاعتماد على النفس، والذكاء، والخلود شهرة زائلة لا غير.

ولعل مكيافيللي قد بالغ فيما للمسيحيين من أثر مضـعف، موهن، فهل يا ترى نسي مكيافيللي الحروب الشـديدة التـي شبت نارها في العصور الوسـطى، حـروب قسـطنطين،

وبلساريوس، وشارلمان، وفرسان المعبد، والفرسان التيتونون، وحروب يوليوس الثاني التي لم يمض عليها وقـت طويـل؟ إن المبادئ الأخلاقية المسيحية لم تؤكد الفضـائل النسـوية إلا لأن الرجال كانوا يتصفون بالصفات المضادة لها، وكانت فيهم قوية لدرجة تؤدي إلى الخراب والدمار، فكـان لا بـد من وجود ترياق شافٍ لهذا الـداء، ومثـل أعلـى مضـاد له يوعظ به الرومان القساة في المجتلد، والبرابـرة الغـلاظ الذين اجتاحوا إيطاليا، والشعوب الخارجة على القانون التـي تحاول الهبوط إلى بلاد الحضارة.

إن الفضائل التي يزدريها مكيافيللي تعمل لبناء المجتمعات المنظمة السليمة، أما الفضائل التي يعجب بها (لأنها تنقصـه كما تنقص نيتشه، فتعمل لقيام دولة قوية ذات نزعة عربيـة، وحكام طغاة في مقدورهم أن يقتلوا الناس بالآلاف ليرغموهم على التضامن والائتلاف، وعلى إراقة الدماء أنهار التوسـيع رقعة البلاد التي يحكمونها، لكنه خلط بين خير الحاكم وخير الأمة، وأفرط في التفكير في الاحتفاظ بالسلطة، وقلما فكـر فيما على صاحبها من واجبات، ولم يفكر مطلقًا فيما تـؤدى إليه من فساد وتجاهل ما بين دول المدن الإيطالية من تنافس

منعش، وخصب ثقافي، وقلما كان يعني بما في ذلك الوقـت من فن رائع، بل إنه لم يعن بفن روما القديمة نفسه، ذلك بأنه ضل في عبادة الدولة ضلالاً مبينًا.

نعم.. أنه أعان على تحرير الدولة من الكنيسـة، ولكنـه أسهم في إقامة نوع من القوميـة العارمـة، ودعـا النـاس إلى عبادتها.. ولم تكن هذه القومية أرقـى رقيـا واضـحا من الفكرة السائدة في العصور الوسطى عـن وجـود دول خاضعة لمبادئ أخلاقية دولية يمثلها البابا.

لقد تحطم كل مثل أعلى بسبب مـا طُبِـعَ عليـه النـاس من أنانية، ومن الواجب على كل مسيحي صريح أن يقرَ بأن الكنيسة وهي تدعو إلى المبدأ القائل بأن الإنسان غير ملـزم بالمحافظة على عهده مع الزنديق والجري على هذه السـنة نفسها، نقول إن من والواجب على كـل مسـيحي صـريح أن يقر بأن الكنيسة وهي تدعو إلى هذا إنمـا كانـت تعمـل بمبادئ مكيافيللي عملاً يحطم رسالتها بوصفها قوة أخلاقية.

ومع هذا فإن صراحة مكيافيللي قـوة حـافزة، واقعيـة إلى حد ما، ذلك أنا إذا قرأنا كتابه، واجهنـا فـي وضـوح لا مثيل له عند غيره من المؤلفين، ذلك السؤال الـذي قلمـا

تعرض له غيره من الفلاسفة: هـل سياسـة الحكـم مقيـدة بالمبادئ الأخلاقية؟ وقد تخرج مـن كتبـه بنتيجـة واحـدة على الأقل؛ وهي أن الأخلاق الطيبـة لا يمكـن أن توجـد إلا بين أفراد مجتمع مسلح بالوسائل التي تسـتطيع تعليمهـا وإلزام الناس باتباعها، وأن المبادئ الأخلاقية التـي يجـب أن تتبعها الدول جمعاء يجب أن تؤجل حتى تقـوم منظمـة تضم الدول جمعاء، ويكون لها بهما المحافظة على القـانون الدولي، وإلى أن يحين ذلك الوقت فستظل الأمم كـالوحوش في الغابة وأيا كانت المبادئ التي تجهر بها حكوماتها، فـإن السنن التي تسيطر عليها هي الواردة في كتاب الأمير:

وإذا ما عدنا إلى المائتي عام من الثورة الفكريـة التـي سادت إيطاليا من أيـام بتـرارك إلـى مكيـافيللي، تبـين لنا أن جوهر هذه الثورة وأساسها لا يعودان أن يكونا نقـص الاهتمام بالعالم الآخر، والاهتمام الزايد بالحياة، فقـد ابـتهج الناس إذ كشفوا من جديد حضارة وثنية لا يشغل بال النـاس فيها الخطيئة الأولى، أو عقاب الجحيم، ترضى فيها الغرائز الفكرية، وتعدم عناصر في مجتمع نـابض بالحيـاة خليقـة بأن تفتقر، وفي هذه الحضارة فقد النسك والزهـد، وإنكـار

الذات والإحساس بالخطيئة ما كان لها سلطان على الطبقـات العليا من سكان إيطاليا، وكادت تفقد ما كـان لهـا عنـدهم من معنى؛ فاضمحلت الأديـرة لقلـة مـن كـان يـدخلها من الرهبان الجدد، وكان الرهبان والإخوان والبابوات أنفسهم يسعون وراء ملذات الدنيا بدل تعاليم المسيح، وتراخت قيـود التقاليد والسلطان، وكان صرح الكنيسـة الضـخمة أخـذ على قلوب الناس وأغراضهم من ذي قبل، وأضحت الحيـاة أكثر اهتماما بما هو في خارج الإنسان، ومع أن هذه الصفة كثيرا ما اتخذت شكل العنف، فإنها طهرت كثيرا من النفوس من المخاوف والاضطرابات العصبية التـي كانـت تخـيم على العقول في العصور الوسطى وتسبب لها الكآبة والظلمة، وأخذ العقل الطليق يمرح سعيدا في جميع الميادين عدا ميدان العلم، وذلك لأن ما ينشأ عن هذا الانطـلاق وذاك التحـرر من خصب قلما كان يتفق حتى ذلك الحين مـع مـا تتطلبـه التجارب والبحوث العلمية من تهذيب نفسي وصبر طويـل، فهذا التهذيب وذاك الصبر إنما يجيئان في الـدور الإنشـائي الذي يعقـب التحـرر، أمـا فـي الوقـت الـذي نتحـدث عنه فقد أفسحت أساليب النفي إلى عبادة العقـل والعبقريـة،

واستبدل بالسعي وراء الشهرة الخالدة الاعتقاد بألا ضـرورة للتقيد بالمبادئ الأخلاقية، وعدت المثـل الوثنيـة كـالحظ، والأقدار، والطبيعة على فكرة الله المسيحية.

وكان لا بد لهذا كله من ثمن، لقد قوض التحرر السـاطع للعقل دعائم العليا السماوية المشرقة على الأخلاق، ولم توجد قوة أخرى لها ما لهذه من سلطان تحل محلها؛ وكانت النتيجة التحلل من جميع الموانع والقيود وإطلاق العنـان للغرائـز والشهوات، وانتشار الفساد، والاستمتاع المرحب به استمتاعا لم يعرف التاريخ له مثيلا منـذ أن حطـم السوفسـاطائيون الأساطير، وحرروا العقول، وأرخوا قيود الأخلاق في بـلاد اليونان القديمة.

خليل حنا تادرس

الأمير

تأليف

مكيافيللي

أثمن هدية

سيدي الأمير:

تعوَدت النـاس دائمـا أن تقـدم الهـدايا إلـى محبـيهم في المناسبات الرائعة.. وإذ أنا أقدم كتابي هذا إلى سـموكم بعد سنوات طوال من الخبرة والبحث والتقصي، وقد بـذلت فيه مجهودا شديدا نتيجة هذه الخبرات التي قضيت فيها أعظم أيام حياتي.

إن كتابي هذا يا سيدي الأمير هـو خلاصـة دراسـات لشخصيات عظيمة مثلكم، شخصيات ملوك وأمراء وعظماء تولوا العرش قبلكم وقد نجح من نجح وفشل من فشل.

وأنتم يا سيدي الأمير لو قمت بقراءة هذا الكتاب قـراءة دقيقة لوجدت فيه عظات وعبر وخلاصة تجارب ودراسـات مستفيضة وصادقة.

إن هذا الكتاب الذي بين يديكم الكريمتين هو أجمل وأثمن هدية أقدمها لسموكم.. إنه أعظم من تلك الأشياء الثمينة التي تعوَدت الناس أن تقـدمها هـدايا للأمـراء.. فهـو أثمـن

من الملابس الموشاة بالذهب واللآلـئ.. لأن هـذه الأشـياء تفنى.. أما الكتاب فسيظل خالدا أبدا..

إنه كتاب سهل الأسلوب ليس مزوقًا بالجمـل الطويلـة.. أو منمقًا بالأساليب المزخرفة.. بل إنه كتاب متواضع.. ولكن فيه خلاصة خبرات حقيقية.

أرجو من سموك تقبل هذا الكتاب المتواضـع ودراسـة ما فيه بدقة، وإني لواثق تمام الثقة أنه سوف يحوز رضاكم، ويؤهلكم لأن تكون أميرا تستطيع التعرُّف بدقة على طبيعـة شعبكم، وأن تحكم ولايتك بصدق وإخلاص وأمانـة وأنـت في عليائك.

ولعلك تذكر أيها الأمير أن مؤلف هـذا الكتـاب إنسـان قد درس الحياة دراسة مستفيضة وعـاش حياتـه دارسـا.. محققًا.. دبلوماسيا.. عاش حيـاة طويلـة مليئـة بالأحـداث العظام. وشاءت هذه الحياة أن تلقي به أخيرا فقيرا.. معـدما لا يملك شيئا سوى قلمه الذي يسجل بـه ذكرياتـه ويـدون به ما لاقاه من أحداث لتكون عظة وعبرة للناس..

يكتب به أثمن هدية أقدمها اك يا سيدي الأمير.

عِبرَة من الماضي

سيدي الأمير:

اسمح لي أن أتناول في حديثي هذا عن الممتلكات الوراثية التي يرثها الأبناء عن الآباء، وأتحدث عن الوسائل التي يمكن للشخص الوريث إدارتها والاحتفاظ بها.. إذ إن من الممكن ألا تستطيع الأسرة الحاكمة أن تحتفظ بملكياتها الجديدة، وقد لا يضطر المرء إلا الاعتداء على المألوفات الوراثية، وأن يأخذ حذره من تقلبات الدهر؛ وفي هذه الحالة يمكنه أن يكيف نفسه لأحداث لم يكن ينتظرها، وبهذه الطريقة يمكن للأمير إذا كان مخلصا في عمله أمينًا على عرشه.. محبا لشعبه.. أن يحافظ دائما على مكانته.. اللهم إلا إذا وقعت أحداث لم تكن في الحسبان، وهبت الرياح عكس ما تشتهي السفن، فعزلَ من العرش، وطُرِدَ منه.. ولكنه حتى إذا طُرِدَ ففي استطاعته ومقدرته عندما تصيب الأمير الجديد أية هزة مهما كانت صغيرة.. أن يسترد مكانته وعرشه.

وبهذه المناسبة دعني أقدم مـثلاً لسـموكم علـى ذلـك: فقد استطاع الدوق فيزار في إيطاليا أمام هجمـات البنادقـة عام ١٤٨٤، كذلك استطاع أن يصمد أيضا أمام هجمات البابا يوليوس سنة ١٥١٠، ويرجع سبب صموده وقوته في هاتين الهجمتين إلى عراقة أسرته في حكم البلد؛ إذ إنه من الطبيعي أن الأمير صاحب الحكم الشرعي لا يسـتفز وجـوده أيـة مؤثرات خارجية؛ وبالتالي فإن حب الشعب لـه أثـر كبيـر في هذا الصمود.. والاستمرار في الحكم.. فهو كمـا يحـب شعبه فإن شعبه يحبه وينسون له أية زلات أو أخطأ صغيرة قد اقترفها أثناء حكمه.. فإن حكمه الطويـل لهـم يجعلهـم شديدي التشبث به، وهذا أفضـل أن يحكمهـم أميـر آخـر قد يكون سيئًا.

إن التغيير والتبدُّل في الحكم يجعـل الطريـق مفتوحـا وممهدا لحدوث تغيير جديد.

تستطيع أن تملك كل شيء..
بالحكمة.. والحب

سيدي الأمير

حقيقة أودُ أن أذكرها لسموك؛ وهي أن الشعب الذي يعيش في حالة سيئة قد يثور على حالته هذه ويشعل نيران ضد أميرهم آملين في تحسين أحوالهم الاجتماعية والسياسية، خاصة وأن السياسة التي يتبعها جنود هذا الحاكم مع الشعب سياسة قاسية ومعاملة دنيئة.

ولذا ستجد أعداءك دائما هم أولئك الذين تضرروا من جراء احتلالهم لبلادهم، وليس في استطاعتك الحفاظ بمحبة الذين وقفوا معك في الحصول على هذه الممتلكات الجديدة؛ لأنك لا تستطيع تحقيق جميع مطالبهم، كما أنك ستكون غير قادر على معاملتهم بالشدة والقسوة وبالنظر لما تشعر به من دين لهم عليك.

ولهذه الأسباب جميعها مهما كانت جنودك قوية فإنك ستحتاج إلى محبة الشعب؛ كي تستطيع احتلال بلادهم.

ولعلك يا سـيدي الأميـر تـذكر الأسـباب التـي أدّت إلى إخراج لويس الثالث عشر ملك فرنسا من مـيلان بعـد احتلاله لها بفضل جيوشه القوية بوقت قصـير مـع العلـم أن القوات التي أخرجته لم تتعد جيوش لودفيكـو الضـئيلة العدد؛ وذلك لأن السكان الذين فتحوا أبواب مدينتهم طوعـا في بادئ الأمر للملك الفرنسي سرعان ما وجدوا الآمال التي تعلقوا بها تتلاشى بسرعة البـرق، ولأنهـم لـم يحصـلوا على المنافع التي كانوا يتمنونها؛ وهكذا لم يستطيعوا احتمال حكم أميرهم الجديد.

ولذا نستطيع أن نقول:

إن الحاكم إذا استطاع إعادة احتلال بلد ثارت عليه، فإنـه لا يضيعها هذه المرة بسهولة وقد واجهته الثورة.. أصبح أقل عداء للاحتفاظ بمركزه عن طريق معاقبة المذنبين والكشـف عن المشـبوهين وتقويـة نفسـه.. وهكـذا فعلـى الـرغم من أن مجرد ظهور شخص كالدوق لودفيكو علـى حـدود ميلان جعل فرنسا تفقد سيطرتها على المدينـة فـي المـرة الأولى.. إلا أنها في المرة الثانية لم تتخلّ عن المدينة وتفقـد

سيادتها عليها إلا بعد أن ثار العالم عليها، وبعد أن هزمـت جيوشها وأُجبِرت على الرحيل من إيطاليا.

وهذا بفضل الأسباب التي شرحتها فيما سبق.

ومن الواجب أن نلاحظ أن الدول التي تتحد بفعل الضـم مع دولة قائمة من قبل قد تكون أو لا تكون تحمـل القوميـة وتتحدثان بنفس اللغة.. وعلى سبيل الاحتياط لأجل الاحتفاظ بهذا الوضع بعيدا عن كل حظ أن يقضي نهائيا على الأسرة التي كانت تحكم في الماضي تلك الدولة، وما تبقـى فـأمر في غاية البساطة؛ ولذا يعمد الناس فيها إلى الهدوء في ظـل حكامهم الجدد.

وعلى كل من يضع يده على مثل هذه الممتلكـات ويـود الاحتفاظ بها أن يضع نصب عينيه دائما أمرين في منتهـى الأهمية:

أولهما: القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة.

ثانيهما: عدم إحداث تغييـر فـي قـوانين هـذه الـبلاد وضرائبها؛ وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقـت بسيط، وأن يؤلفا دولة واحدة متحدّة.

ولعل من خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هـو أن يقـرر الحاكم الجديد إقامة مقره الجديد في الممتلكات الجديدة؛ وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمدا، وهذا ما فعله الأتراك في بلاد اليونان؛ إذ على الرغم من جميع الوسـائل والسبل التي لجأ إليها الأتراك فـي بـلاد اليونـان للحيـاة فيها ووجود المحتمـل فـي المنطقـة يمكنـه فـي رؤيـة الاضطرابات عند حدوثها ومعالجتها فورا بينما إذا كان بعيدا عنها فإنه لا يحس بهـا إلا بعـد حـين، وبعـد أن يصـبح من الصعب علاجها؛ ولذلك فإن وجود الأمير فيها لا يشـجع الشعب بقيام الثورة.

كما ينبغي إقامة مستعمرات تقيم فيها جاليات فـي مكـان أو مكانين استراتيجيين؛ إذ إن من الضروري إما تنفيذ هـذه الخطة أو الاحتفاظ بقوات عسكرية ضخمة في البلاد المحتلة، ولا تكلف هذه المستعمرات الأمير شيئًا إلا النـذر اليسـير؛ ففي إمكانه أن يرسل الجاليـات ويقـوم بالإنفـاق عليهـا، وفي عمله هذا لن يسيء إلا إلى أولئك الذين تؤخـذ مـنهم أراضيهم ومنازلهم ليقيم فيها السكان الجدد وهم لا يؤلفـون إلا نسبة قليلة من تلك البقعة المحتلة .. ولذا سـتكون هـذه

المستعمرات لا تكلف الأمير شيئًا وتكون موالية ومخلصـة له، وأقل ضررا من السكان الأصليين الذين أصبحوا فقـراء معدمين عاجزين عن إلحاق الأذى بالأمير.

كما يجب أن نلاحظ أن علينا أن نعطـف علـى النـاس أو نقضي عليهم؛ إذ إن في إمكانهم الثأر للإساءات الصغيرة، أما الإساءات الكبيرة فهم أعجز من أن يثأروا لها.. ونحـن إذا أردنا الإساءة لإنسان ما فيجب أن تكون هـذه الإسـاءة على درجة بالغة لا نضطر بعدها إلى التخوُّف من انتقامه.

أما الاحتفاظ بالحاميات بدل الجاليات فهذا يكلف الأميـر نفقات كبيرة تستنزف جميع موارد تلك الدولة؛ ممـا يجعـل التملك الجديد يتحول إلى خسارة وإساءة لجميع سكان الـبلاد المحتلة الذين يرون الجيش معسكرا في أراضيهم، ومثل هذا الشعور يحول جميع الناس إلى أعداء قادرين علـى إلحـاق الأذى؛ إذ إنهم على الرغم من هزيمتهم ما زالوا في بيـوتهم وأراضيهم.

ولذا فإن الحاميات غير مجدية.. بينما الجاليـات أحسـن بكثير ونافعة.

سيدي الأمير:

إن القاعدة العامة تنصُّ على أن الأجنبي القـوي عنـدما يغزو بلدا فإن الضعفاء فـي هـذا البلـد يصـبحون فـورا من أنصاره وأتباعه، يدفعهم إلى ذلك حسدهم لأولئك الـذين كانوا يتحكمون في شئونهم؛ وهكذا لا يجد الحاكم الجديد أيـة صعوبة في اجتذاب صغار الوجهاء إلى صفه لأنهم يندفعون إلى تأييد الدولة التي أقامهـا بمحـض رغبتـه الخالصـة.. كما يجب أن يكون واعيا حتى لا يمكـنهم مـن الوصـول إلى منتهى القوة والسيطرة.. وبالتالي باستطاعته عن طريـق قوته وتأييد هـؤلاء الوجهـاء أن يقضـي علـى الأقويـاء في إمارته الجديدة، وأن يظل الحاكم المطلق في جميع شئون الإمارة.. أما الذي لا يسير تحت طاعته فسرعان ما يخسـر ما حصل عليه.

ولعل السياسة التي اتبعها الرومان في كافـة المقاطعـات التي احتلوها وهي أنهم قد أقاموا المسـتعمرات والجاليـات، وغرروا بصغار الوجهاء دون أن يضـاعفوا مـن قـوتهم، وأخمدوا سلطان الوجهاء، ولم يسـمحوا للحكـام الأجانـب بالحصول على النفوذ في بلادهم.. وسأعرض بلاد اليونـان

كمثل فريد من نوعه؛ فقد اتخذوا من الأخيين والأيتولثين أصدقاء لهم، وقضوا على مملكة مكدونيا، وطردوا الأنطاكيين، ولم يسمحوا لأصدقائهم الأخيين الأيتوليين بتوسيع رقعتهم وبسط سلطانهم، كما لم يصغوا لإغراءات الملك فيليب الذي نشد صداقتهم إلا بعد أن أضعفوا من نفوذه، كذلك لم يسمحوا لأنطيوخوس رغم قوته بالسيطرة على أي جزء من بلاد اليونان.

ولم يكن ما فعله الرومان في هذه الحالات إلا ما يجب أن يفعله الأمراء الحكماء الذين لا يحصرون اهتمامهم بشئون الحاضر بل يتعدونها إلى ما يتوقعونه من خلافات في المستقبل؛ فيتخذون أهبتهم لمواجهتها ودرء أخطارها.. إذ إن مجرد توقعها يمكن سهولة علاجها، أما إذا انتظر الإنسان مجيئها فإن العلاج يصبح عسيرا وصعبا، وهذا ما يحدث تماما في شئون الدولة إذ إن تمييز الشرور قبل وقوعها- وهذا ما يتيسر للإنسان العاقل- يمكنه من معالجته بسهولة، ولكن إذا أدى الافتقار إلى المعرفة إلى استقرارها حتى أصبح تشخيصها في متناول كل إنسان.. تعذر العثور على علاجها؛ ولذا فإن الرومان كانوا يلاحظون

الاضطرابات قبل وقوعها بفترة طويلة، وكانوا تبعا لذلك يعثرون على العلاج قبل أن تؤدي هذه الاضطرابات إلى حرب عشواء، كما أنهم عرفوا أن الحرب أمر لا يمكن تجنبه وإنما وفي الإمكان تأجيله.. ولهذا فقد أعلنوا الحرب على فيليب وعلى أنطيوخوس في اليونان تجنبا من محاربتهما في إيطاليا، مع أنه كان في وسع الرومان آنذاك أن يتجنبوا كلا الحربين ولكنهم لم يختاروا عمل ذلك، ولم يهتموا بأن يقوموا بما نسمعه الآن على كل لسان من ألسنة الحكماء، وهو أن نتمتع بفوائد التأجيل، وآثروا أن يوكلوا الأمر لفضائلهم وصدق حواسهم؛ لأن الزمن يلد كل شيء، وقد يتمخض دون اكتراث أو أهمية إما عن الخير أو عن الشر.

ولنتحدث الآن عن الملك لويس الذي سيطر على إيطاليا فترة طويلة من الزمن..

فقد استدعى البنادقة الملك لويس للحضور إلى إيطاليا؛ ليحققوا عن طريقة رغبتهم في الحصول على نصف لومبارديا.. ولن ألوم الملك على مجيئه، ولا الدور الذي قام به؛ إذ إنه كان مدفوعا برغبته في وضع أقدامه في إيطاليا

دون أن يكون له أصدقاء في الـبلاد، بعـد أن رأى جميـع الأبواب تغلق في وجهه بسبب سلوك سـلفه الملـك شـارل اضطر إلى قبول أية عروض للصداقة يمكن العثور عليها.. وكان من الممكن أن تنجح خططه بسهولة لولا الأخطاء التي ارتكبها في إجراءاته السابقة.

وقد استطاع الملك أن يستعيد سمعته التي كـان شـارل قد أضاعها؛ فقد استسلمت له جنوا وأصـبح الفلورانسـيون من أصدقائه، كما تقدّم المركيز مـانتولم، ودوقـات قـدارا، وسيدة فورلي، وسكان لوكـا وبيـزا وسـينيا.. وتقـدّمـوا إليه جميعا ينشدون وده ومحبته.

ولا شك في أنه لم يجد أية صعوبة في الاحتفاظ بسـمعته وممتلكاته في إيطاليا، وفرض يده القوية على جميع هـؤلاء الأصدقاء الكثيري العدد والمتخوفين دائما إما مـن الكنيسـة أو من البندقية؛ مما جعلهم مرغمين على الالتفـاف حولـه.. ولكنه بدلاً من ذلك لم يكد يضع قدميه في ميلان حتـى قـام بإجراء مضاد؛ فساعد البابا الكساندر على احتلال رومانـا، ولم يدرك لغفلته أنه بعمله هذا قد أضـعف نفسـه بـالتخلي عن أصدقائه الذين التجأوا إليه طالبين الحماية، وقوى الكنيسة

بإضافة سلطات زمنية إلى سلطتها الروحيـة التـي تضـفي عليها قوة هائلة.

وبعد أن ارتكب الخطيئة الأولى، اضـطر إلـى إتباعهـا بأخطاء أخرى؛ إذ إن رغبته في وضع حد لمطامع الكساندر، وللحيلولة دون صيروته حاكم تسكانيا حملته على الحضـور مرة أخرى إلى إيطاليا، ولم يكتفِ بما فعله من زيـادة قـوة الكنيسة وفقدان أصدقائه، بل وامتدت مطامعه إلـى مملكـة نابولي واقتسامها مع ملك إسبانيا، وبعد أن كان السيد المطلق لإيطاليا أخذ معه شريكًا قد يلجأ إليه جميع الطامحين الـذين قد لا يرضيهم حكمه لإنصافهم، وبدلاً من أن يترك في تلـك المملكة ملكًا تابعا له، خلعه عن عرشه ليأتي بآخر في إمكانه أن يطرده من حكمه.

وهذا ما تبين لنا سيدي الأمير..

إن الرغبة في الامتلاك، غريزة طبيعية، وشيء مـألوف، وعندما ينجح القادرون على الامتلاك فـإنهم يلقـون الثنـاء دائما، ولا يعيبهم اللوم، أما إذا كانوا عـاجزين عـن ذلـك، ورغم عجزهم، يريدون الامتلاك مهما كان الـثمن، فـإنهم يقترفون خطيئة تستحق أعظم اللوم ولهذا..

لو كان في استطاعة فرنسا أن تستولي على نابولي بقواتها ليس إلا لكان من واجبها أن تفعل ذلك، أما إذا كانت عاجزة فقد كان خطأ منها أن تشترك في ذلك مع أسبانيا، وإذا كنـا نجد له المبررات لاقتسام لومبارديا مع البنادقـة؛ لأن هـذا الاقتسام كان الذريعة التي لجأ إليها ملك فرنسا لوضع أقدامه في إيطاليا، فإننا لا نجد المبرر لهذا الاقتسام الجديـد الـذي يستحق اللوم؛ لأن الضرورة لم تقض به أو تبرره.

وهكذا.. سيدي الأمير..

ارتكب الملك لويس الأخطاء الخمسة.

أولاً: سحق الدولة الصغرى.

ثانيا: ضاعف في إيطاليا من قوة حاكم واحد.

ثالثًا: أتى بأجنبي قوي.

رابعا: لم يكلف نفسه عناء الإقامة في البلاد.

خامسا: لم يقم فيها أية مستعمرات أو جاليات.

* * *

ولو قيل بأن الملك لويس قد سلم رومانا لالكساندر ومملكة نابولي لأسبانيا رغبة منه في تجنـب الحـرب، وإذا زعـم أخرون أن الملك قد وعد البابا بمثل هذا المشروع كمكافـأة

منه على حله من رباطـه الزوجـي وعلـى منحـه رتبـة الكاردينالية لروهان فإني أرد عليه بما أقوله فيما بعد.

وهكذا فقد الملك لويس لومبارديا؛ لأنه لم يهتم أو يحتـرم الشروط التي راعاها غيره من الأمراء الذين احتلوا مقاطعات ورغبوا في الاحتفاظ بها، ولم يكن في هـذه أيـة معجـزة وإنما لقي الأمر عاديا ومقبولاً، ولقد دار الحديث بيني وبـين الكاردينال روهان في مدينة نانت عندما قام قيصر بورجيـا نجل البابا الكساندر باحتلال رومانا، وقد قال لي الكاردينـال إن الإيطاليين لايفهمون شيئًا من أمور السياسة؛ لانهم سمحوا للكنيسة بأن تصل إلى هذه الدرجة من العظمة، وقـد دلتنـا التجارب على أن عظمة الكنيسة في إيطاليا وقوة إسبانيا فيها، إنما هما من خلق فرنسا، وكان من ثمرة هذا الخلق أن جـاء خراب فرنسا ودمارها؛ ومن هذا نستنتج قاعدة عامة وهـي أن من يسع إلى مساعدة غيره يحكم على نفسـه بـالخراب والدمار، إذ إن القوة إنما تأتي عن أحد طريقين.. إما الحيلة.. أو القوة العسكرية وكلاهما أمران يكونان موضع ريبة وشك عند ذلك الإنسان الذي وصـل إلـى ذروة المجـد والقـوة والنفوذ..

وأخيرا..
يا سيدي الأمير أستطيع أن أقول:
تستطيع أن تملك كل شيء.. بالحكمة.. والحب.

قد لا يكون النصر سهلاً
ولكن من الصعب الاحتفاظ به

سيدي الأمير:

من منا لا يعرف الفاتح العظيم الإسكندر الأكبر..؟! مـن منا لا يعرف غزواتـه وفتوحاتـه والـبلاد التـي انتصـر عليها وأصبح سيدا لها..؟!

لقد أصبح في غضون سنوات قلائل إمبراطورا على أكثر بلاد العالم ..!!

ومات الإسكندر وهو في ريعان شبابه ولم يأخذ من الدنيا شيئًا سوى سيرته الخالدة العاطرة..

واستطاع خلفاء الاسكندر أن يسيطروا على الممالك التي سيطروا عليها رغم المصاعب والعقبات التي لاقوها.

قد يدعو هذا للدهشة.. ولكن التاريخ يعلم جيدا أن الممالك نوعان تحكمان بطريقتين مختلفين.. فإما أن يحكـم المملكـة أمير وموظفوه الذين عينُوا وزراء فيسـاعدونه علـى إدارة شئون الـبلاد.. أو أن يحكمهـا أميـر ونـبلاء يحتفظـون

بمناصبهم، لا بفضل الحاكم وعطفه بـل بفضـل سـيرتهم العطرة ودمهم العريق.

لهؤلاء النبلاء مقاطعات يحكمونها ولهم رعـاياهم الـذين يعترفون بهم كأسياد لهم؛ ويرتبطون بالتالي بهم.

وللأمير في هذه الدول التي يحكمها الأمراء ومـوظفيهم سلطة أكبر وأوسع؛ إذ ليس في الدولة من يعتبر في منصـب العظمة سواه.. وإذا كانت الطاعة مفروضة لسـواه، فلأنهـم من وزرائه وموظفيه وليس لهم أي اعتبارات خاصة، كمـا لا يكن الشعب أي عاطفة محددة.

وحكومة الأتراك.. ومملكة فرنسا خير مثال على هـذين النوعين من الحكومات في عصرنا هذا..

فالسلطنة التركية يحكمها حاكم واحد.. أما الآخرون فهـم حاشيته وموظفوه.

وتنقسم المملكة إلى سناجق يبعث لهم الحـاكم بمـوظفين إداريين مختلفين يعزلهم متى شاء، ويغيرهم حين يريد.

أما ملك فرنسا فيحيط به عددا ضخما من النبلاء الأقدمين الذين يعترفون بهم أبناء رعيتهم ويقدرونهم، ولهم امتيازاتهم

الخاصة التي ليس في استطاعة الملك حرمانهم منهـا إلا إذا عرَض نفسه للأخطار..

يا سيدي الأمير..

إذا ما درسنا أوضاع هاتين الدولتين لاتضـح لنـا أنـه من الصعب جدا السيطرة أو احتلال مملكة الأتراك، ولكن إذا استطاعت دولة احتلالها، فإن الاحتفاظ بها أمر فـي منتهـى الصعوبة.

نعم..

يا سيدي الأمير..

قد يكون النصر سهلاً.. ولكن من الصعب الاحتفاظ بـه، ويعود سبب الصعوبة في احـتلال تركيـا؛ إذ إن المحتـل لا يمكن يدعى من أمراء تلك المملكة للقيام بمثل هذا العمل، كما لا يقدر من أن يسهل مغامرته عن طريق ثورة يعلنهـا أولئك القريبين من شخص الحاكم.

ولذا فإن على كل من يهاجم السلطان التركي، أن يعتمـد على قوته لا على الاضطرابات في صفوف العـدو؛ إذ إنـه سيواجه جيشًا متحـدا، ولكنـه إذا تمكـن مـن الانتصـار عليه وهزمه في ميدان القتال هزيمة تقعده عن إمكانية حشـد

جيوش جديدة فلا يبقى أمام المحتل ما يخشاه إلا أفراد أسـرة الأمير التركي وإذا ما قام بالقضاء عليها وإبادتها لم يعد هناك ما يخشاه؛ إذ إن الآخرين لا يتمتعـون بأيـة مكانـة عنـد الشعب..

ولما كان المنتصر قبل أن يحقق هذا الانتصار لم يعلـق عليهم الآمال الكبـار.. ففـي اسـتطاعته بعـد أن انتصـر أن لا يخشاهم أو يخافهم.

أما النسبة لفرنسا، فإن من السهل على الفاتح أن يحتلهـا عن طريق استعماله أحد النبلاء في المملكة وإن كان هنـاك عدد من الغادرين الحاقدين، وآخر من الراغبين في التغيير؛ وفي استطاعة هؤلاء أن يفتحوا الطريق أمامك، وأن يسهلوا عليك الوصول إلى النصـر، ولكنـك إذا أردت فيمـا بعـد أن تحافظ على ما وضعت يدك عليه وملكته، فإنـه سـتقوم أمامك عقبات لا حصر لها يثيرها أولئك الـذين سـاعدوك في الماضي، والآخـرين الـذين تعرضـوا لاضـطهادك، ولن يكفيك اضطهاد أسرة الأمير، ولكن سيظل دائما أولئـك النبلاء الذين سيتولون القيادة في كل ثورة يشغلونها..

وإنك يا سيدي الأمير إذا لم تستطع أن تسـيطر علـيهم أو ترضيهم فإنه سيفك الزمام من يدك وتضيع الدولة التـي سيطرت عليها في أقرب فرصة ممكنة..

وما أشـبه حكومـة داريـوس بنظـام الحكـم السـائد عند الأتراك.. ولذا استطاع الأسكندر الأكبر أن يغزو الـبلاد أولاً ويقضي على حكومته قبل أن يحقق النصر..

فلما مات داريوس بقيت الدول المحتلة آمنة تحـت حكـم الإسكندر؛ بسبب العوامل التي سبق أن شرحتها.

ولو قُدرَ لحلفاء الإسكندر أن يظلوا متعـاونين، متحـدين لتمتعوا بحكم هذه البلاد زمنًا طويلاً، ولكن الخلافـات التـي وقعت بينهم وأطماعهم فـرَقـت بيـنهم، وشـتت عملهـم، وقد اسـتطاع الرومـان بفضـل ديمومـة الإمبراطوريـة أن يصبحوا السادة العظماء الذين لا ينازعهم فـي سـلطانهم أحد..

ولكن عندما كانت الخلافات والثورات تشتعل بين الرومان أنفسهم، كان في اسـتطاعة أي مـن المنافسـين أن يعتمـد على تأييد ذلك الجزء من الإمارة التي أقـام سـلطة فيهـا.. فقد بقي الرومان وحدهم دون سواهم هم الحكـام المعتـرف

بهم في كل زمان ومكان بعد أن قضوا على السلالات الملكية القديمة.

وأخيرا..

تبدو لنا الحقيقة واضحة في السهولة التي استطاع بها الإسكندر من الاحتفاظ بآسيا، وفي العقبات التي واجهت الأخرين للاحتفاظ والسيطرة على البلاد المحتلة مثل بيروس وغير.. وهذا لا يرجع إلى كفاءة الممثل أو عدمها.. وإنما يرجع هذا إلى تغيير الأوضاع وطبيعة الشعب في هذه البلاد.

إن الحرية لن تُنَالَ.. إلا بسفك الدماء

سيدي الأمير..

حقيقة يجب ألا يتجاهلها أي أمير أو حاكم في البلاد وهي أن الحرية لا تُنَالُ إلا بسفك الدماء.. نعم.. لذا فإن الدول التي فقدت حريتها وباتت تحت سيطرة الحاكم الجديـد لا يمكـن إخضاعها أو الاحتفاظ بها إلا بعد تجريدها من كـل شـيء، وأن يعيش الأمير فيها ويقيم بين سكانها، ثم لا يسمح لأهلهـا بالحياة في ظل قوانينهم القديمة، مكتفيا بتناول الجزية مـنهم. وأن ينشئ حكومة جديدة تعتمد فـي بقائهـا علـى محبتـه وحمايته.. هذا بالإضافة.. أن المدينة التي تمتعـت بالحريـة لا تذعن بسهولة إلا إلى أبنائها ومواطنيها وهذا هو السـبيل الصحيح للاحتفاظ بها.

ولا يغيب عن ذهن سموكم أنه كل من يسيطر على مدينة حرة لا يقوم بتهديدها، ويتعرَض هو للدمار منها؛ لأنها ستجد هي دائمة الدافع على العصيان والثورة باسم الحرية، وباسـم أعرافها القديمة التي لا يسدل الزمن عليها سـتائر النسـيان، ولا تلحق بها المنافع الجديدة الإهمال والتغاضي، ومهما فعل

الحاكم الجديد فإنه لن يقدر أن ينسي أهلها اسم مدينتهم إلا إذا مزقهم شر ممزق وأبادهم وشتت شملهم؛ إذ إنهـم سـيظلون ذاكرين هذه الأعراف التي ينشـدونها عنـد كـل طـارئ كما فعلت مدينة بيزا بعـد سـنوات عديـدة مـن احـتلال الفلورانسيين لها.. أما إذا كانت المدن أو الإمـارات معتـادة على حياة الخنوع في ظل أميـر أو حـاكم، وقـام الحـاكم بالقضاء على الأمير السابق، فإن أهلها الـذين قـد اعتـادوا على الخنوع والطاعة أعجز من أن يتفقوا على اختيار أميـر جديد من بينهم.. بالإضافة أنهم لم يعرفوا الحياة والحريـة.. إنهم خاضعون.. خاشعون، بطيئون في العصـيان وإشـعال نيران الثورة، وهذا مـا يجعـل الأميـر المحتـل يضـمهم إلى صفه ويخضعهم تحت حكمه وسلطانه.

أما الجمهوريات:

فإنها تمتاز بالمجد والخلود، والعظمة والشموخ والحيويـة العظيمة، والقوة والجبروت والرغبة المشـتعلة فـي الثـأر والانتقام من الأعداء، والتمسك العظـيم بحـريتهم وإضـافة المزيد إلى عظمتهم وخلود بلادهم التي من الصعب جدا قيـام العدو فيها أو احتلالها.

وتشبهوا بنهاية سيرتهم

سيدي الأمير:

إن حياة العظماء سراج مضيئ ينير لمن يسلكون فيـه.. والعظماء أنفسهم شموع تحترق لأجل إسعاد الأخرين.

ولا تأخذنك الدهشة أيها الأميـر إذا قـدمت لـك أمثلـة في منتهى العظمة والخلـود؛ لأن النـاس يسـيرون دائمـا في الطرق التي سار عليها من قبلهم ويمضون في أعمـالهم مقلدين من سبقهم، ولما كان الإنسان عاجزا تماما عن اللحاق بالآخرين وعن تقليدهم.. فإن من واجب العـاجز أن يسـير في الطريق التي خطا فيها العظمـاء مـن قبـل، وأن يقلـد العظماء فقط، حتى إذا عجز عن الوصول إلـى عظمـتهم، استطاع على الأقل الحصول على جزء يسير منهـا، وهـو في عمله هذا يشبه المتبصرين من قـاذفي السـهام عنـدما يدركون أن الهدف الذي يريدون إصابته أبعـد مـن مـدى مرماهم.

وعندما يتولى أمير جديد ويتربع على عرش الولاية التي احتلها وفرض سيطرته عليها سواء بصعوبة أو سهولة، وهذا

يرجع إلى ما يتمتع به من شخصية قوية كانت أم ضعيفة فإن حظه أو حسن طالعه يمكنه من الحفاظ على عرشه في هـذه المملكة..

ولكن..

إذا أردت التحدُّث عن أولئك الذين أصبحوا أمراء بفضـل مواهبهم الشخصية وكفاءتهم لا بحسن طالعهم فـإني أعتبـر أعظمهم وأخلدهم سيدنا موسى عليه السلام وكـورش وروموليـوس وثيزيوس وأمثالهم من العظماء ونحن إذا اسـتثنينا الحـديث عن سيدنا موسى بالنظر أنه كان كليم الله ومجرد منفذ لأوامر الله.. إلا أنه يستحق التقدير والإعجاب بالنسبة إلـى قداسـته التي جعلته أهلاً للحديث مع الله، أما بالنسبة إلـى كـورش وغيره من الذين أنشئوا المالك وأقاموهـا فـإنهم يسـتحقون التقدير والإعجاب..، وإذا مـا درسـنا أعمـالهم الخاصـة وأساليبهم في الحكم لاتضـح لنـا أنهـا لا تختلـف كثيـرا عن أعمال موسى وأساليبه على الرغم من اعتمـاد سـيدنا موسى على سيد عظيم يقف بجانبه ويسانده وهو – الله -.

ونحن إذا ما حققنا في حياتهم ودققنا النظر مليا لاتضـح لنا أنهم لا يعتمدون على شيء.. ولكـنهم كـانوا يقتنصـون الفرص كي يصلوا إلى ما يبتغون.

وهكذا كان من الضروري أن يجد سيدنا موسى شعب بني إسرائيل عبيدا أذلاء في مصر يضطدهم المصريون؛ لتكـون لديهم الرغبة في اتباعـه للنجـاة مـن العبوديـة.. وكـان من الضروري أيضـا أن يعجـز رمولـوس عـن البقـاء في – البا – وأن يتعرض للعداء منذ ولادته حتـى يـتمكن من أن يكون ملكًا على روما..

وكان من الضروري أن يجد كـورش الفـرس نـاقمين على إمبراطورية الماديين، وأن يرى هؤلاء ضعفاء حـولهم السلام الطويل إلى أنصاف رجال – مخنثين -، ولـم يكـن من استطاعة ثيزيوس أن يظهر كفاءته لو لم يجد الأثينيـين متفرقين، متمزقين..

وهكذا أتاحت هذه الفرص لهـؤلاء الحـظ، واسـتطاعوا بفضل مواهبهم العظيمة الاستفادة منها لتمجيد بلادهم وخلود أنفسهم..

ومثل هؤلاء الذين يصلون إلى الحكم عن طريق كفاءاتهم يحصلون على ممالكهم بصعوبة بالغة، ولكـنهم يحتفظـون بها بسهولة، وقد تقع بعض الصعوبات والعراقيل في مرحلة التأسيس نتيجة إقامة نظام جديد للأمور، ووضع قوانين جديدة يحكم بها البلاد، وقد يجد الحاكم فئتين مـن الشـعب، فئـة تناصره وتقف معه بإخلاص، وأخرى تعاديه؛ وهكذا يظهـر الوضع على هذه الصورة يقـوم مصـلح جديـد فيهاجمـه خصومه بحماس المواطنين بينما يدافع عنه أنصـاره دفاعـا فاترا – خائرا – ويتعرَض هو في خضم ذلك إلـى خطـر عظيم، ولا ينجح المصلح في هذه الحالة ولا يحقـق شـيئًا، ولكنه إذا استطاع الاعتماد على قوته وتمكن مـن اسـتخدام القوة فإنه من الصعب أن يصاب بالفشل.

وهكذا..

أثبتت التجارب.. أن الأنبياء قد احتلوا وانتصروا، بينمـا فشل الأنبياء غيـر المسـلحين؛ إذ بالإضـافة إلـى ذلـك أن اختلاف طبيعة الشعوب قد يكون من السهل إقناعها بشيء من الأشياء، ولكن من الصعب جدا إبقاؤها على هذا الاقتناع.

ولو كان موسى وكورش وثيزيوس، ورموله‌وس، غير مسلحين لما استطاعوا إرغام الناس على احترام الشرائع التي سنوها فترة طويلة من الزمن، وقد رأينا في وقتنا الحاضر من يفشل فشلاً ذريعا في قوانينه الجديدة عندما شرعت الجماهير بالكفر به؛ إذ لم تتوفر لديه الوسائل للاحتفاظ بأولئك الذين آمنوا به بسرعة، ولإرغام الكافرين به على الإيمان، ولذا ينبغي عليهم أن يذللوا هذه العقبات سواء بالحيلة أو بالقوة حتى يرغموا الناس على الإيمان بهم؛ وبذلك يصبحون أقوياء بعيدين عن كل أذى أو خطر.

واسمح لي سيدي أن أقدم لسموكم مثلاً آخر كنموذج لجميع هذه الحالات، وأعني به موضوع – هيرو السيراقوزي – الذي ارتقى من صفوف الشعب إلى مرتبة الإمارة في – سيراقوزه – دون الاستعانة بأحد ولكن كان الحظ حليفه، وكانت الفرصة سانحة له إذ اختاره السيراقوزيون – المضطهدون زعيما لهم؛ فوصل بكفاءته إلى مرتبة – الأمير – وكانت فضائله في حياته الخاصة تسانده وتعضده وقد استطاع أن يكون جيشًا جديدا غير الجيش القديم.. كذلك ارتبط بأصدقاء جدد غير أصدقائه

القدامى، وهكذا استطاع بفضل جيشه وأصدقائه أن ينشئ مملكة على أسس سليمة.. وعلى أرض صلبة متينة.

وأخيرا أقول لسموكم هذا القول الحكيم – وتشبهوا بنهاية سيرتهم.

وكانت النهاية الموت.. والخلود

إن صمود السلم أسهل كثيرا.. ولكن البقاء فوق القمـة.. صعب..

نعم..

إن في طرق الصعود قد لا يجد الأمير أو الأمـراء أيـة مصاعب تواجههم؛ إذ قد يقدرون على تذليلها، لكن متـاعبهم سرعان ما تنبثق عندما ترسخ أقدامهم..

وتنطبق هذه الحالة على أولئك الـذين يشـترون الـدول بالمال، أو يحصلون عليها هبة أو عن طريـق كـرم مـن يمنحهم إياها، وذلك كما حدث في اليونان وفي المدن الأيونية والهليسبونت عندما زرع داريوس أمـراء فـي مثـل هـذه الأماكن ليحافظوا عليها باسمه حماية لأمجـاده وسـلامته.. كما تنطبق أيضا علـى أولئـك الأبـاطرة الـذين ارتقـوا من صفوف الشعب عن طريق رشوة الجيش.

والدول التي تقام بسهولة مثلها في ذلك مثل جميع الأمور المستعجلة ذات البدايات السريعة، والبناء السـهل، لا تقـدر أن تكون جذورا صلبة وعميقة لها، مثلها في ذلك مثل بنـاء القصور في الرمال سرعان ما تُهدم عند هبوب أية عاصفة..

وقد يرفع الحظ إنسانًا عاديا فيجعله أميرا، وقد يشاء سوء الطالع أن يسقط أميرا.. أو دوقًا فيجعله أسيرا.. بل يدمره الدمار النهائي.. أو يكون الموت هو نهاية كل شيء.

ويذكر لنا التاريخ القريب مثالان عن ذلك هما: فرانسيسكو سفوروزا، وقيصر بورجيا.

فقد استطاع فرانسيسكو بالطرق السليمة وبواسطة كفاءته العظيمة الارتقاء من درجة المواطن العادي إلى مرتبة دوق ميلان، وقد استطاع بسهولة ويسر الاحتفاظ بما حصل عليه بعد تخطي ألوف العقبات والمصاعب.

أما قيصر بورجيا، فقد استطاع الحصول على دولة عن طريق نفوذ والده، ولكن سرعان ما فقد هذه الدولة وضاعت منه؛ لأن ما جاء بسهولة.. ضاع بسهولة، وما جمعته الرياح فقد بعثرته الزوابع رغم محاولاته الفاشلة في توطيد أقدامه في الدولة التي أقامتها له جيوش الآخرين وعطفهم، وقد سبق لي أن قلت..

إن الذي لا يضع أسسه مقدما، قد يتمكن عن طريق المواهب الخارقة من وضعها لاحقًا على الرغم مما في ذلك من متاعب المهندس، ومن أخطار على البناء نفسه.

ولذا فقد استطاع الدوق أن يبني في هذه المرة على أسس سليمة لتدعيم سلطته وتقوية سلطانه وقد ساعده في ذلك والده – البابا الكساندر السادس – رغبة منه في تعظيم شأن ابنـه الدوق، وقد واجهتـه فـي سـبيل ذلـك مصـاعب جمـة في الماضي، وفي المستقبل أيضا.

ففي المرة الأولى أراد أن يرفع ابنه إلى درجـة الحكـام فمنحه إمارة خاصة لممتلكات الكنيسة رغم عدم موافقة دوق ميلان والبنادقة؛ لأن البندقية كانت تشـمل بحمايتهـا كـلا من فاييزا وريميني، ورأى البابا أيضا أن القوات العسـكرية في إيطاليا ولا سيما تلك التي كان لها أن تحقـق أهدافـه.. كانت تحت سيطرة أولئك الذين يخشون من زيـادة عظمـة البابا؛ ولذا لم يكن في وسعه أن يعتمد عليها لأنها كانت تحت قيادة أسرة أورسيني وكولونا وأصدقائهما وتطلـب الوضـع خلق حالة من الاضطراب تقلب الأوضاع القائمـة؛ وذلـك ليتمكن من تحقيق سيادته عليها.

وكان ما أراده سهلاً.. إذ عثر على البنادقة الذين دفعـتهم عوامل أخرى إلى دعوة الفرنسيين إلى إيطاليا، وقـد ذلـل أمامها الطريق بحل الملك لويس من رباطه الزوجي.

وهكذا جاء الملك إلى إيطاليا بمساعدة البنادقـة وموافقـة البابا الكساندر، ولم يكد يضع أقدامه حتى كان البابا قد حصل منه على القوات العسـكرية اللازمـة لتحقيـق مشـروعه في رومانا.

وبعد أن حصل الدوق على رومانا، وانتصر على كولون أوقفه عن المضي في طريقه عاملان..

شكوكه في قواته وإخلاصها، وريبته فـي إدارة فرنسـا؛ وهذا يعني أن الدوق قد خشي من أن ملك فرنسا قـد يتخـذ نفس الموقف، وقد ثبت لديه هذا الوضع بالنسبة لأورسيني.. إذ إنه بعد أن احتل فاييزا وبدأ في مهاجمـة بولونـا لاحـظ أن قوات أورسيني تتردد في الهجوم.. أما بالنسـبة للملـك فقد تحقق من نواياه عندما وجد أن الملك قد وقف حجر عثرة لتحقيق هدفه وهو مهاجمة تسكانيا، بعـد أن احتـل دوقيـة أوربنسو، وآنذاك قرر الدوق عدم اعتمـاده علـى جيـوش الآخرين؛ ولذا قرر أيضا إضعاف حزبي أورسيني وكولونـا في روما باجتذاب أنصارهما إليه وجعلهمـا مـن السـادة، وأغدق عليهم العطايا، ومنحهم الرتب العالية؛ وبذلك قضى على أسرة كولونـا، وعنـدما سـنحت الفرصـة اسـتطاع

أن يقتنصها، وذلك عندما رأى الأورسيني أخيرا أن عظمة الدوق وقوة الكنيسة تعني دمارهم؛ فدعوا إلى عقد مجلس للشورى في أوربينو، وهنا نشبت الثورة وسادت الاضطرابات في رومانا وتعرض الدوق لأخطار لا حصر لها، لكنه تغلب عليها أخيرا بمساعدة الفرنسيين، وبعد أن استعاد مركزه قرر أن لا يثق بالفرنسيين ولا بغيرهم من القوات الأجنبية وأن يلجأ إلى الحيلة.

وأخفى الدوق حقيقة أهدافه بمهارة ومكر مما دفع الأورسينيين إلى أن يسارعوا إلى مصالحته، وقد تمكن الدوق من إزالة مخاوفه بما أغدقه عليه من الهدايا، واقتنع الأورسينيين سذاجة منهم بالعودة إلى سينيغاغليا حيث وقعوا فريسة سهلة بين يديه، وتمكن الدوق بعد أن قضى عليهم أن يسيطر على جميع أنحاء رومانا ودوقية أورتبينو، وقد استطاع أن يكتسب محبة الشعب وتأييده له.

وشعر الدوق أن الشعب ابتدأ يحبه ويطمئن إليه؛ وبالتالي شعر بالطمأنينة تجاه الأخطار القائمة بعد أن أعدَ قواته العسكرية الخاصة وأطاح إلى حد كبير بالقوى المجاورة التي في إمكانها إيذاؤه.

وبدأ البحث عن أحلاف جدية وبالتقرُّب إلـى الفرنسـيين بمناسبة الحملة التي أعدَّها ملكهم لمهاجمة مملكـة نـابولي لمساعدتهم ضد الأسبان، وكان بوسعه أن يحقق هذه الأمنيـة لولا وفاة والده البابا الكساندرا.

أما عن المستقبل:

فقد خشي أن يكون الرئيس الجديـد لـدويلات الكنيسـة من غير أصدقائه، وأن يعمل على حرمانه مـن المقاطعـات التي منحها له أبوه.. وقد قرر مواجهة هذا الاحتمال باللجوء إلى أربعة طرق؛ أولاً: أن يقضي على جميع الأفراد الـذين ينتمون إلى الأسر الحاكمة التي سلبها ممتلكاتها ليحول بـين البابا الجديد وبين فرصة الاعتماد عليهم، ثانيـا: أن يفـوز بصداقة نبلاء روما ليتمكن عن طريقهم من كبح جماح البابا، ثالثًا: فرض أقصى ما يستطيع من سـيطرة علـى المجمـع البابوي، رابعا: اكتساب أكبر قوة ممكنة ليتمكن من الـدفاع وحيدا عند أول هجوم.

وقد استطاع أن يحقق الثلاثة أهداف الأولى، بينمـا كـان الهدف الرابع في طريقه إلى التحقيق؛ إذ تمكن من قتل عـدد كبير من الأفراد المخلوعين، واستطاع جذب أمـراء رومـا

إلى صفه، وقد خطط كي يصبح سيد تسكانيا، وتمكن من فرض حمايته على بيزا، وامتلاك بروجيا وبيومبينو، ثم وجد نفسه وقد دانت منه رومانا تماما؛ ولذا استطاع أن يحقق نصرا عظيما دون الاعتماد على قوى الآخرين، وكان يحسن كسب الأصدقاء والقضاء على الأعداء، كما تيقن من وضع القواعد التي تمكّن من إرسائها في وقت قصير.

لقد حقق الدوق انتصارات كثيرة.. وكسب حب الشعب.. ونال شهرة بالغة..

ولكن..

قد نستطيع أن ننتصر على كل شيء.. إلا الموت؛ فهو الوحيد الذي يستطيع أن ينتصر علينا ويحدد إقامتنا في هذه الحياة..

أخيرا..

ساءت صحة الدوق حتى لفظ آخر أنفاسه وهو في قمة مجده وخلوده، وإنه خير مثال يحتذى به، لقد كان مثالاً يجب أن يحذو حذوه كل الذين يرتفعون إلى قمة السلطة..

كان يستطيع أن يكسب الأصدقاء بسرعة، وأن يفرض الحب والخوف على رعاياه، ويبسط الاحترام والتبعية

على جنوده، وأن يـدخل البـدع بـدل العـادات القديمـة، وأن يتصف بالشدة والرأفة معا والشهامة والتحرر، والحفاظ على صداقة الملوك والأمراء.

نعم..

لقد كان مائة رجل في رجل واحد.

وكانت النهاية..

الموت.. والخلود.

الصعود إلى العرش
على سلم النذالة والإجرام

سيدي الأمير..

إن الأطماع البشرية تجعل الإنسان يوطئ بقدميه كل ما هو مقدّس في حياته..

تجعله يقتل.. يسرق.. ينهب.. يغتصب أرضا.. أو نفسا.

كل ذلك في سبيل أن يصل إلى ما يصبو إليه.. ويحقق أهدافه الدنيئة.

ولعل في الصور والأحداث التي أقدمها لسموكم خير دليل على ما أقول..

لقد تولى أنجاتو كليس العرش وهو كما تعلمون من أحط الناس وأقذرهم؛ إذ عاش حياة مليئة بالإجرام والشر منذ نعومة أظافره.. ولكنه كان في منتهى الذكاء إذ استطاع أن يصبح قاضي قضاة.. ثم أميرا، وأن يحافظ بالحيلة - ودون مساعدة الآخرين- على ما منحه إياه الدستور، وأسر بنواياه إلى هامليكار القرطاجي الذي كان يحارب على رأس جيوشه في صقلية، واستدعى ذات صباح أهل

سراقوسة ومجلس شـيوخها للتشـاور معهـم فـي قضـايا في منتهى الأهمية بالنسبة للجمهورية، وعند إعطائه الإشارة المتفق عليها، قام جنوده بذبح جميع الشيوخ وأثرياء المدينة، وبعد هذه المذبحة البشعة تمكن من احتلال المدينة وحكمهـا دون أن يخاف أحدا، وقد تمكن أيضـا فـي فتـرة قصـيرة أن يحرر سراقوسه، ويرغم القراطاجيين علـى مصـالحته واحترامه..

وكل من يدقق في حياة هـذا الرجـل وأفعالـه، يتضـح له أنها ليس فيها ما يمكن أن يرجع إلى الحـظ؛ لأنـه كمـا ذكرت لم يصل إلى مرتبة الإمارة بدافع من عطـف النـاس وإنما بارتقاء سلم المتطوعة معرضا نفسه لآلاف الصـعاب والمخاطرات، وعندما وصل حافظ على مركـزه وعرشـه ووطيء بقدميه أعز المقدسات في سبيل أن يحقق هدفه؛ وهو العرش.

لقد استطاع هذا الإنسان أن يصل بنذالته وقسوته وفظاعته إلى السلطان، ولكنه لن يستطيع أبدا أن يصل إلى الخلود..

ولو نحن تحققنا من فضائله التي تتمثـل فـي مواجهـة الأخطار والتغلب عليها، وفي قوة معنوياتـه فـي مواجهـه

الصعاب، لما وجدناه سببا يدعونا إلى اعتباره أقـل مكانـة من أي من الزعماء المشهورين، ومع ذلـك فـإن فظاعتـه البربرية، وقسوته الوحشية، وتجرُده من الشعور الإنسـاني، لا تسمح لنا كلها باعتباره واحدا من الرجال المشـهورين.. الخالدين.

ونموذج آخر يا سيدي الأمير من هذه الفئة التي تتسـاق سام المجد ضاربة عرض الحائط بالقيم الإنسانية..

إنه..

أوليفيروتو دافيرمو وقد نشأ في عهـد البابـا الكسـاندر السادس يتيما فرعاه خاله جيوفاني فوغلياني الذي رباه أحسن تربية، وعمل منه جنديا، وقد حصل على مركـز عسـكري ممتاز وحارب الشاب تحت قيادة أخيه، وبعد وقـت قصـير تمكن بفضل ذكائه، وقوة بديهته من أن يصـبح أحـد قـادة القوات المحاربة، ولكنه رأي أنه من المهانة لنفسه أن يظـل تحت قيادة الآخرين فعزم على احتلال مدينـة – فيرمـو – بمساعدة بعض مواطني المدينة الذين كانوا يفضلون العبودية على الحرية.

وقد كتب إلى خاله جيوفاني طالبا منه أن يزوره خاصة أنه في شوق إليه ويتمنى أن يرى ممتلكاته خاصة بعد أن غاب عنها مدة طويلة.. وقد رجاه أيضا في رسالته أن يستقبله أحسن استقبال هو ومن معه من أصدقائه وجنوده.

ولم يتقاعس جيوفاني عن الاحتفاء بابن أخته، وحمل أهل المدينة على استقباله وتكريمه، ثم استضافه في منزله، وبعد أن انتظر أوليفيرتو عدة أيام حتى أعد خطته الشريرة الماكرة دعا خاله جيوفاني وجميع الرجال المشهورين من المدينة إلى وليمة كبرى، وبعد وليمة العشاء، افتتح أوليفيروتو بكياسة بعض المناقشات المهمة متحدثًا عن عظمة البابا الكساندر وابنه قيصر وعن مشاريعهما، وعندما بدأ جيوفاني والآخرون بالرد عليه، نهض واقفًا قائلاً:

إن مثل هذه المواضيع يجب أن تبحث في خلوة..

واتجه إلى حجرة جانبية وسار في أعقابه خاله جيوفاني ومن معه من الوجهاء والنبلاء وأثرياء المدينة، وما كادوا يجلسون حتى هجم عليهم الجنود من مخابئهم؛ فقتلوا جيوفاني

ومن معه جميعهم، وبعد انتهاء المجزرة البشعة [1] امتطى أوليفيروتو جواده وطاف بشوارع المدينة وحاصر دار قاضي القضاة؛ واضطر الجميع خوفًا منه إلى إطاعته وتأليف حكومة جديدة تولى هو رئاستها.. ثم أحاط نفسه بعدد من المدنيين والعسكريين لدرجة أنه في الفترة التي حكم فيها المقاطعة لم يكتفِ بتوطيد أقدامه في فيرمو فحسب، بل فرض مهابته على جميع جيرانه، وكان من الصعب أن يخدعه قيصر بورجيا عندما اعتقل الأورسيني والفيتلي،

(١) إن هذه المجزرة البشعة تذكرنا تماما بما حدث في عهد الأمير محمد علي-مذبحة القلعة- إذ دعا محمد علي باشا والي مصر المماليك إلى حفلة في القلعة بمناسبة الاحتفال بخروج ابنه طوسون لمقاتلة الوهابيين في جزيرة العرب، وقام بغلق الأبواب عليهم وذبحهم جميعا، ثم أمر بعد ذلك بقتل كل أتباعهم في مختلف جهات مصر؛ فخرج العساكر المصريين والأرناءوط والمغاربه، وطافوا بقصور المماليك حيث نهبوا وفتكوا بكل من وجدوه فيها، واستولوا على كل ممتلكات المماليك وما أشبه هذه المجزرة بالمجزرة التي قتل فيها أغاتوكليس خاله ولي نعمته ومن معه في سبيل أن ينفرد بالحكم وحده ويصبح أميرا (خليل).

إذ اعتقل هو أيضا بعد سنة واحدة من المجـزرة الجماعيـة التي ارتكبها.

ونستنتج من ذلك.. أن على المحتل عند احتلالـه لدولـة من الدول أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب جرائمـه فـورا ومرة واحدة، وأن لا يعود إليها من يوم إلى آخـر؛ وهكـذا يتمكن بعدم القيام بتغييرات حديثـة مـن خلـق الطمأنينـة عند شعبه واكتسابه إلى جانبه بواسطة المشاريع النافعة لـه، أما الذي يتبع أسلوبا آخر بسبب الخوف والجبن أو المشـورة الفاسدة فإنه يضطر إلى الوقوف دائمـا وسـيفه فـي يـده؛ إذ لا يستطيع مطلقًا الوثوق في رعاياه أو الاطمئنـان لهـم، لأنهم بسبب تكرار الإساءات الجديدة عاجزون عن الاعتمـاد عليه..

أما المنافع فينبغي أن تمنح قطرة قطرة؛ حتـى يسـتطيع الشعب أن يتذوق طعمها ويلتذ بها.

كذلك على الحاكم أو الأمير أن يعيش فـي محبـة مـع رعاياه، فالحاجة التي تنشأ في الأوقات الصعبة، تحتم عليـك أن تكون مستعدا لمواجهتها، ويجب أن تبذل من الخير بقـدر ما تستطيع؛ لأن الحاجة إلى محبة الشعب قد فرضته عليك.

كن صديقًا لهم.. تكن سيدا عليهم!!

سيدي الأمير:

في الصفحات السابقة قدّمت لسموكم نماذج من الذين تولوا الإمارة عن طريق الحيلة والخداع والقتل والمجازر البشـعة والسلب والنهب.. أما الآن فإني أحدثكم عن وسـيلة أخـرى شريفة.. نبيلة يمكن أن يصل بها المواطن إلى مرتبة الإمارة.

والوصول إلى هذا المنصـب لا يعتمـد فيـه الإنسـان على الكفاءة أو الحظ.. بل على المكر الذي يدعمـه الحـظ، وقد يصل المرء إليه إما عن طريق تأييـد الجمـاهير لـه، أو عن طريق مساندة النبلاء.

ويواجه الأمير الذي يصل إلى منصبه بمسـاعدة النـبلاء مصاعب أكثر في سبيل الحفاظ على سلطته من ذلك الـذي يرفعه الشعب إليها؛ إذ إن الأول يحاط بمجموعة من النـبلاء الذي يعتبرون أنفسهم أندادا له، فيعجز بذلك، عن تيسير دفة الأمة والحكم كما يريد، أما الذي يختاره الشعب ليكون أميرا فيجد نفسه وحيدا دون منافس له، ولا يجد من يقـف ضـده أو يعارضه سوى عدد بسيط لا يذكر، يضـاف إلـى هـذا

أنه ليس في الاستطاعة ترضية فئة النبلاء باتبـاع العدالـة وعدم إيقاع الأذى بالآخرين، بينما من السهل جـدا إرضـاء جماهير الشعب.. إذ إن هدف الشعب أنبل من أهداف النبلاء، فهؤلاء يريدون أن يظلموا، وأولئك يريدون مجـرد وقايـة أنفسهم من ظلم الآخرين.

قد لا يستطيع الأمير حماية نفسه مـن شـعب غاضـب عليه؛ وذلك لكثرة عدد أفـراد الشـعب.. ولكنـه يسـتطيع أن يحمي نفسه من غضب النبلاء.. لأنهم قلة.. كذلك يستطيع الأمير أن يعيش مع الشعب مهما كان هذا الشعب.

أما النبلاء فقد يستطيع أن يعيش معهم؛ إذ إن باسـتطاعته أن يضفي عليهم النبالة أو ينزعها عنهم في أي وقـت أراد، وفي كلتا الحالتين يجب أن تسـتفيد مـن هـؤلاء النـاس، وأن تستعين بمشورتهم وآرائهم، أمـا إذا كـانوا يبتعـدون عنك بدافع أغراضهم الخاصة ومطامعهم.. فمعنى هذا أنهـم يفكرون في أنفسهم فقط أكثر من تفكيرهم في صالح الأميـر أو الإمارة؛ لذا ينبغي على الأمير أن ينظر إلـيهم كأعـداء خفيين سيعملون حتما على تحطيمه عنـدما تـأتي الفرصـة لذلك.

وينبغي على الأمير الذي يصل إلى منصبه باختيار الشعب أن يحافظ على صداقته، وهذا ما يطلبه الشعب لخلاصه من العبودية والطغيان.. أما الذي يصل إلى منصبه عن طريق النبلاء رغم إرادة الشعب، فيجب عليه أن يحافظ على حب الشعب له وهذا من السهل إذا هو أحب هذا الشعب وحقق مطالبه؛ حتى يضمن لنفسه البقاء والاستمرار في حكم ولايته.

والشعب يحب الأمير الذي يتصف بالشجاعة والصدق والأمانة، وكان قادرا بشجاعته على بعث الحيوية عند جماهير الشعب، فإن هذا الأمير لا يجد نفسه مخدوعا في شعبه.. وسوف يرى أنه قد أقام قواعده على أسس سليمة وعاش على أرض صلبة وسط شعب يحبه.

أما الأمير الذي يحكم شعبه عن طريق القضاة فإن وضعه سوف يفتر ويصبح معرضا للخطر؛ لأن الشعب سوف يكون تحت رحمة هؤلاء القضاة لأنه من السهل جدا خلع هذا الأمير من منصبه، إما بالعمل ضده أو الثورة عليه إذ يفلت زمام السلطة من يديه؛ لأن المواطنين والرعايا الذين تعوّدوا على تلقي أوامرهم من القضاة، لا يكونون مستعدين لإطاعة

أوامر الأمير، وسيكون دائما مفتقرا- خاصة في الأوقات الصعبة- إلى الرجال الذين يمكنه الاعتماد عليهم والوقوف بجانبه، ولا يقدر مثل هذا الأمير أن ينفذ خططه كما يريد خاصة في أوقات السلم، عندما يكون الشعب في حاجة إلى الدولة..

لذا..

يجب على كل أمير يودُّ أن يستمر في حكم ولايته أن يحافظ عل حب شعبه له – هذا الشعب الذي يتفانى في خدمته وعلى استعداد للتضحية من أجله ومن أجل سلامة الوطن..

لذا.. أيها الأمير

كن صديقًا لهم.. تكن سيدا عليهم.

أقول للأمير الجبان
لا تكن قطة حتى لا تفترسك
الكلاب المسعورة

سيدي الأمير..

سؤال طالما رددته على نفسي، وهو يحتوي بين طياتـه الكثير من الإجابات.. والكثير من المعاني العظيمة وكثيـرا ما أجد له جوابا سواء بالنفي أو الإيجاب..

هذا السؤال.. هو:

هل يستطيع الأمير الذي يمكنه في حالـة الحاجـة، مـن المحافظة على نفسه.. وعلى بلاده..؟ وهل هو في حاجة دائمة إلى مساندة الآخرين له..؟

إن خير وسيلة لتفسير ذلك أن أقول:

إنني أعتبر من يمكنهم المحافظة على أنفسهم من الأمراء هم أولئك الذين يملكون الكثيـر مـن الرجـال.. والكثيـر من المال، والجيش القوي، ويصمدون في ميدان الحرب ضد من يهاجمهم..

أما الذين يحتاجون إلى مساعدة الآخرين هم أولئك الـذين لا يقدرون أن يواجهوا العدو فيختبئون وراء الأسوار؛ خوفًـا وخشية من العدو المهاجم.

لذا يجب على هذا الأمير الذي يخشى الهزيمة، أن يقـوم بتزويد مدينته بالمؤن، ويقوي وسائلها الدفاعية والهجوميـة؛ وبذلك يخشى العدو مهاجمة الأمير الـذي يجيـد تحصـين مدينته، ويحسن معاملة شعبه ورعاياه.

ولا يمكن لأي عدو أن يجرؤ على مهاجمة مدينة محصنة لأنه لو أقدم على ذلك سوف يضطر إلـى التراجـع؛ خوفًـا من الهجوم فتلحـق بـه الهزيمـة والعـار لأنـه يسـتحيل على مهاجم أن يظل محاصرا إحدى المدن فترة طويلة، دون أن تعمل قواته المحاصرة شيئًا، كما أن الشـعب المحاصـر عندما يرى ممتلكاته تُنْهب وتُسلب، قد يفقد صبره، وإن إطالة الحصار تجعلهم ينسون أميرهم، فإن الأمير الشجاع القـوي يتغلب دائما على هذه المتاعب، برفـع معنويـات رعايـاه من جهة، والتأكيد لهم بأن هذه الفترة العصيبة لـن تطـول مداها.. كذلك يمكن تخويفهم من فظاعة العـدو وجبروتـه، يضاف إلى هذا أن العدو يلجأ عـادة إلـى إحـراق المـدن

المجاورة المحيطة للمدينة، وعندما تكون عقول أهلها ما زالت واقعة تحت سيطرة الحماس والقوة للدفاع عن أنفسهم؛ ولذا فإن هذه الناحية لا تثير الفزع عند الأمير، إذ مع مضي الوقت، وفتور الحماس يكون الضرر قد حدث، والشر قد وقع، ولم يعد هناك من علاج وهذا ما يبعث فيهم القوة ويحفزهم على الاتحاد مع أميرهم..

لذا ينبغي على الأمير الذكي أن يدرس جيدا جميع الاحتمالات حتى يحافظ على شجاعة رعاياه، وأن يعمل جيدا على توفير المؤمن والسلاح بدرجة كافية حتى يستطيع تحقيق النصر والفوز.

نعم يجب على الأمير أن لا يكون قطة حتى لا تفترسه الكلاب المسعورة.. بل يكون شجاعا.. قويا صلبا..

كن شجاعا.. مستعدا لمواجهة عدوك
كي لا تهتز صورتك في عيون شعبك

سيدي الأمير:

دعني أحدث سموكم عن الإمارات الكنيسية التي تخضع لتقاليد دينية قوية هي من القوة والكيفية بحيث تحافظ على سلطان أمرائها.. هؤلاء الأمراء الذين يملكون دولاً لا يحتاجون للدفاع عنها، ويكون لهم رعايا لا يحكمونها، كما ينعدم وجود وسائل للدفاع عنها، لكنها لا تُسأب منهم ورعاياهم، رغم أنهم لا يشعرون بأنهم يحكمون فإنهم يحبون ذلك ولا يستطيعون الابتعاد عنهم، فهذه الإمارات وحدها هي الأمينة والسعيدة؛ لأن الله هو الذي يمجدها ويحافظ عليها. لدرجة أنه في استطاعة هذه الإمارات إرهاب ملك فرنسا وإرغامه على الخروج من إيطاليا، وكذلك على تحطيم البنادقة وتدميرهم.

لقد كانت إيطاليا قبل مجيء شارل ملك فرنسا خاضعة لحكم البابا والبنادقة وملك نابولي ودوق ميلان الفلورانسيين، وكان لهؤلاء الزعماء أمران يجل عليهم الاهتمام بهما أولهما:

عدم السماح لأي أجنبي بدخول إيطاليـا بقـوة السـلاح.
ثانيا: الحيلولة دون أي مـن الحكومـات الفاتحـة وتوسـيع حدودها.

وكان من المفروض أن توجه الرقابـة بصـور خاصـة إلى البابا والبنادقة، وقد يطلب كبح جماح البنادقـة تحـالف جميع الزعماء الآخرين، كما حدث في الدفاع عن فيـرارا. ولكبح جماح البابا كان عليهم استخدام نبلاء رومـا، وكـان هؤلاء النبلاء منقسمين إلى حـزبين: حـزب الأورسـيني، وحزب كولونا، وكان الخلاف واقعا دائما بينهما، وفي حالـة استعداد لإشعال نيران الحرب تحت سمع البابـا وبصـره، ولقد حاول الكثير من البابوات على مر السنين عقد تصـالح بينهما أو القضاء عليهما ولكن محاولاتهم باءت بالفشل.

ثم جاء الكسندر السادس الذي استطاع خلافًا عن جميـع البابوات السابقين إظهـار الطريقـة التـي يسـتطيع البابـا أن ينتفع بها بواسطة المال والقوة، واسـتخدم ابنـه الـدوق فالنتين أداة لـه فقـام بجميـع الأعمـال السـابق ذكرهـا، وعلى الرغم من أن هدفه لم يكن تعظيم الكنيسة بل الدوق..

إلا أن ما قام به من أعمال أدّى إلى تعظـيم الكنيسـة التـي أصبحت بعد وفاة الدوق وارثة جهوده.

وجاء بعد ذلك البابا يوليوس الذي وجد الكنيسـة تحتـل جميع رومانا، ويخضع لها جميع نبلاء روما بعد أن قضـى على الحزبين المتنافسين (الأورسيني، وكولونا) بفضل قسوة الكساندر وشدته..

ووجد يوليوس الطريق ممهدا أمامه لجمع الثروة بأساليب لم تكن تُستَخْدم من قبل، وقد صمم أيضـا علـى السـيطرة على بولونا وإخضاع البنادقة، وطرد الفرنسيين من إيطاليـا وقد نجح في ذلك جميعا، وقويت قوة الكنيسة، وأبقى حزبـي الأورسيني وكولونا على الوضع الذي وجدهما عليه من قبل عند مجيئه، وبالرغم من ظهور بعض زعماء الحزبين الذين كانوا يتوقون إلى تغيير هذا الوضع، إلا أن عاملين اشـتركا في إبقائهما على حالهما أولهما: عظمة الكنيسة التـي خافـا منها، ثانيا: عدم وجود الكرادلة الذين هم سبب المنازعـات والخلافات التي لا حدود لها.

وأخيرا..

جاء قداسة البابا ليو العاشر وقد فوجيء أنه وجد الكنيسة في وضع قوي جدا لم يكن من قبل، ومن المنتظر أنه سوف يزيدها أيضا قوة بفضـل طيبتـه وصـلواته حتـى يجعـل من كرسي البابوية شأنًا عظيما جديرا بكل تقـدير واحتـرام وتقديس.

لا يحك لك ظهرك.. سوى ظفرك

سيدي الأمير..

لعله لا يغيب عن بال سموكم أن أي بلد في العالم سـبب قوته وعظمته هو السلاح – خاصة إذا كان سـلاحا حـديثًا يرهب به عدوه ويدافع به عن نفسه.. ووطنه.

والسلاح بدون رجال أقوياء، شجعان، لا يرهبون الموت، لا قيمة له.. فالرجال.. والسـلاح لا غنـى عنهمـا للـدفاع والهجوم..

والقوات المسلحة التي يعتمد عليها الأميـر فـي جيشـه والدفاع عن ممتلكاته، إما أن تكون خاصة بـه أو مرتزقـة، أو رديفًا، أو مزيجا، والمرتزقة والرديف قوات فاشلة غيـر مجدية، بل ينطوي وجودها على الخطورة، وإذا اعتمد عليها فلن يشعر مستخدمها بالاستقرار والطمانينة؛ لأن هذه القوات كثيرا ما تكون مجزأة وطموح، لا تعرف النظام، ولا تحافظ على العهود والمواثيق، تتظاهر بالشجاعة أمـام الأصـدقاء، وتتصف بالجبن أمام الأعداء، لا دين لها أو مبدأ ولا تخـاف الله ولا ترعى الذمم مع الناس.

والأمير الذي يعتمد على هؤلاء الناس، يتعرَض أيام السلم للنهب من المرتزقة، وفي أيام الحرب للنهب من العدو.. ولعل السبب في ذلك هو – الولاء – أو إلى حافز آخر من الحب يحملهم على الصمود في ميدان القتال مقابل مبالغ بسيطة يتقاضونها وهذه المبالغ أقل شأنًا من أن يدفعهم إلى التضحية بأرواحهم في سبيلك، وهم على استعداد تام ليكونوا جنودك طالما أنك لا تشن حربا.. أما إذا جاء القتال فإنهم إما أن يعمدوا إلى الهرب. أو إلى رفض القتال تماما.

ولقد استطاع الملك شارل احتلال إيطاليا دون أية مقاومة؛ لأنها كانت تعتمد على جيوش المرتزقة، ولا شك في أن هذه الجيوش قد ساعدت بعض الأفراد على الوصول إلى الحكم وأبدت شجاعة باسلة، ولكن عندما جاء الغزاة الأجانب برهنت هذه القوات على عدم جدواها.

أما عيوب هذه الجيوش.. فإن قادتها إما أن يكونوا رجالاً في منتهى الكفاءة، أو في منتهى العجز.. وإذا كانوا أكفاء فلا يجب ان تعتمد عليهم؛ لأنهم سيتطلعون دائما إلى تحقيق أمجادهم الشخصية أو يدمرونك أنت – سيدهم – أو يضطهدون غيرك عاصين في ذلك أوامرك.

أما إذا كان القائد عـاجزا.. فسـيكون السـبب المباشـر في دمارك..

وقد علمتنا التجارب أن الأمراء والجمهوريات المسـلحة هي التي تحقق التقدُّم، بينما لا ينتج عن المرتزقة إلا الأذى.

ولعل خير ما نضربه من مثل علـى قـوات المرتزقـة، ما حدث في قرطاجة حيث اضطهد جنود المرتزقة أهلها بعد انتهاء الحرب الأولى مع الرومان.

وفي اليونان.. اختار أهل طيبة فيليـب المقـدوني قائـدا لقواتهم العسكرية بعد موت إيبامينونداس، وبعـد أن حقـق انتصاره الأول، حرمهم من حريتهم.

واستأجر أهل ميلان بعد موت الدوق فرنسيسكو سفورزا لمحاربة البنادقة، ولكنه بعد أن انتصر عليهم من سرافاجيو، تحالف مع البنادقة على أهل ميلان، الذين استأجروه، وكـان والد سفورزا هذا هو جندي أيضا يعمل في خدمـة جيوفانـا ملكة مابولي فتخلى عنها فجأة تاركًا إياهـا دون أيـة قـوة عسكرية؛ مما أرغمها على الارتمـاء فـي أحضـان ملـك الأرغون.

ولقد اختار الفلورانسيون لاولو قيتيلي قائدا لجيوشهم وهو رجل يتمتع بالفراسة وحسن البصيرة، فارتفع عن طريقهم ـا من مركزه المتواضع إلى أعلى الدرجات، وإذا كان بـاولوا قد سيطر على بيزا فليس في وسع أحـد أن ينكـر حاجـة الفلورانسيين إلى صداقته؛ إذ لو أضحى في خدمة أعـدائهم فلن تتوفر لهم السبل لمقاومتهم، ولو اسـتأجروه لأصـبحوا مرغمين على طاعته.

أما البنادقة.. فإذا ما درسنا ما أحرزوه من نجـاح لتبـين لنا أنهم تقدموا بكل ثبات وطمأنينة ونجـاح عنـدما كـانوا يعتمدون في حروبهم على قـواتهم.. أي قبـل أن يبـدءوا في تحقيق مشاريعهم في البر الإيطالي، وحاربوا بشـجاعة، معتمدين على نبلائهم وشعبهم المسلح، ولكنهم عندم شـرعوا يقاتلون في البر تخلوا عن هذه الفضيلة وأخذوا يحذون حـذو الأسلوب الإيطالي المتبع، ولم يكن لديهم ما يخافونه في بداية فتوحاتهم من قادة جيوشهم، وكانت سمعتهم في منتهى العلو، ولكن بعد اتساع رقعة هذه الممتلكـات، ولا سـيما بقيـادة كرماغنولا اكتشفوا الخطـأ الـذي وقعـوا فيـه، وأدركـوا أنه أضحى في منتهى القوة خاصة بعد أن انتصر على دوق

ميلان، ولما كانوا يعرفون أنه كان فاتر البهجة في الحـرب من أجلهم اعتقدوا بوجوب عدم القيام بأية فتوحـات جديـدة تحت قيادته، ووجدوا أخيـرا الطريقـة المثلـى للخـلاص منه وهي إعدامه.

وتولى قيادة جيوشهم من بعده قـادة آخـرون، وكانـت الخسارة من أمثال هؤلاء أكثر توقعا مـن الكسـب، وهـذا ما حدث بالفعل في فابيلا؛ إذ خسروا في يوم واحد ما كسـبه البنادقة بالجهد والتعب في مدى ثمانية قرون، وذلك لأن هذه القوات غالبا ما تكون بطيئة في الحصول علـى المكاسـب، وسريعة ومفاجئة إلى حد الإعجاز في تحقيق الخسائر.

لذا سيدي الأمير

يجب على الإنسان أن يعتمد علـى نفسـه فـي تحقيـق أهدافه.. يجب على الأمير أن يكون هو القائد الأعلى للقوات المسلحة.. ولا يعتمد عل جنود المرتزقة أو يستأجر جيوشًـا تحارب بدلاً عنه كي يحرزوا النصر له؛ لأنهم لن يستطيعوا الموت أو التضحية بأعمارهم من أجل حفنة مـن المـال.. إنهم ليسوا أمناء في الحرب وفي توجيه أسلحتهم نحو العدو.. إنهم يختبئون خلف الأسوار هربا مـن الرصـاص.. إنهـم

مرتزقة يعيشون من أجل ابتزاز المال.. لا من أجل التضحية بأنفسهم..

لذا..

يقول المثل العامي..

لا يحك لك ظهرك.. سوى ظُفْرك.

يضع سره في أضعف خلقه..
وهكذا
انتصر الفتى الصغير.. داود
على جليات الجبار

سيدي الأمير:

حينما يطلب المرء من جاره أن يحضر لمساعدته والدفاع عنه بقواته العسكرية، فإن هـذه القـوات تُسـمى.. قـوات إضافية.. وهي عديمة الفائدة مثل – القوات المرتزقة -.

وقد قام البابا يوليوس بمثل هذا العمل في الفترة الأخيـرة عندما فشلت قواته المرتزقة في عملية احتلال – فيـرارا – فلجأ إلى القوات الإضافية، وقد اتفـق مـع ملـك إسـبانيا – فيرناندو – لمساعدته بجيوشه، ولكن هذه الجيـوش تبـدو خطيرة للغاية على من يستعين بها؛ لأنها إذا خسرت فأنـت مهزوم، وإذا انتصرت فقد تصبح أنت أسيرها.

وقد أراد البابا يوليوس الاستعانة بهذه الجيوش كي يحتـل فيرارا – ومن سوء حظه هزمت قواته الإضافية في رافينا –

وقد ثار السويسريون وطردوا المنتصـرين، ونجـا البابـا من الوقوع في أسر الأعداء الذين لاذوا بالفرار.

وليس حسنًا لمن لا يرغب في الاحتلال أن يستخدم هـذه القوات؛ لأن الدمار غالبا ما يكون كاملاً، فهذه القوات تكون متحدة وهي تدين بالطاعة للآخرين؛ وبالتالي فـإن الخطـر الأكبر عند المرتزقة يقوم في جبنهم وترددهم فـي خـوض المعارك، بينما يقوم خطر القوات الإضـافية فـي جرأتهـا وبسالتها.

وينبغي على الأمير العاقل أن يتجنب هذه القوات ويعتمـد فقط على قواته الخاصة، ويفضل أن يخسر المعارك بقواتـه من أن يكسبها بقوات غيره، واثقًا من أن النصر الذي يتحقق بفضل قواته الأجنبية لا يمكن أن يعتبر نصرا.

وجدير بالذكر أن قيصر بورجيـا عنـدما أراد اقتحـام مقاطعة رومانا – استعان بقوات إضافية.. ثم قوات مرتزقة.. وقد وجدهما يمثلان منتهى الخطورة بالنسبة له، فلـم يكـن أمامه سوى أن يؤلف جيشًا بنفسه ليكون موضع ثقته، وكـان ذلك ملفتًا للأنظار إليه؛ فاحترمه الشعب والجيش، واعتبـروه القائد الأعلى لقواته المسلحة.

وعلى سبيل المثال أيضا – هيروالسـيراقوزي – الـذي أُخْتِير قائدا لجيش سيراقوسة وقد أدرك فور اختيـاره عـدم صلاحية القوات المتطوعة التي كانت منظمة علـى غـرار قوات المرتزقة الإيطالية، ولما كان قد شعر بالخطر لوجودها فقد أقدام على تمزيقها، وأخذ بعد ذلك يؤلف جيشًا قد اختاره بنفسه، وقد حقق الانتصار وخاض المعارك به.

ولعلنا نذكر أيضا قصة النبي داود عليه السلام [1] عنـدما تحدى البطل الفلسطيني – جوليات الجبار – وهو لا يـزال

---

(١) ذُكِرت قصة داود النبي في سفر صموائل الأول، إصحاح ١٧ أنه قد وقف جليات الجبار الذي يبلغ طوله ستة أذرع وشبرا، وعلـى رأسه خوذة من نحاس ودرع يزن خمسمائة مثقال مـن نحـاس، وعلى رجليه خفان من نحاس، وكان كل ليلة يخـرج مـن بـين صفوف المقاتلين ويصيح – "ولماذا خرجتم مصطفين للقتال إلا أنا الفلسطيني وأنتم عبيد لشاؤل اختاروا لكـم رجـلاً لينـازلني، إن استطاع أن يقاتلني ويقتلني فإنا نكون لكم عبيدا، فإن قـدرت أنـا عليه وقتلته فأنتم تكونون لنا عبيدا فتتعبدون لنا، ثم قال الفلسطيني أنا اليوم عساكر إسرائيل هاتوا لي رجلاً فنتقاتل جميعا.

فلما سمع شاؤل وجميع إسرائيل كلمات الفلسـطيني تلـك فشـلوا ووجلوا جدا.، وكان داود... أصغر أخوته يرعـى أغنـام أبيـه =

في بيت لحم، وكان الفلسطيني يدنو صباحا ومساء ويبـدي نفسـه أربعين يوما.

وبرز من بين الصفوف شاب صغير.. يافعا وبيده مقلاع وخمسـة حجارة ملساء وضعها في وعاء الذي كان له في مخلاة، ثم تقـدم على الفلسطينين ورأى داود واحتقره قائلاً أكلب أنا حتـى تـأتيني بعصى. تعالى إلي فأعطي لحمك لطيور الجو ولوحوش البر، فقال داود للفلسطينين، أنت تأتي إلي بسيف ورمح وأنا آتي إليك باسـم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الـذين فاضـحتهم، هـذا اليـوم يحصرك الرب في يدي فأضربك وآخذ عنك رأسك، وأعطي جثث عسكر الفلسطنيين اليوم لطيور الجـو ولوحـوش الأرض لـتعلم الأرض كلها أن لإسرائيل إلها ويعلم هذا الجمع كله أن الـرب لا يخاف بالسيف أو الرمح لأن الحرب للرب وهو يسلمكم لأيدينا.

وكان عندما قام الفلسطيني وجاء ودنا ليلاقي داود وجـرى نحـو الصف للقاء الفلسطيني، ووضع داود يـده فـي الوعـاء وأخـذ من هناك حجرا ورمى به وضرب الفلسطيني في جبينه؛ فـانغرز الحجر في جبينه فخرّ علـى وجهـه إلـى الأرض؛ فقـوي داود على الفلسطيني وأخذ سيفه وقتله بـه وقطـع رأسـه، فلمـا رأى الفلسطينيون أن بطلهم قد مات هربوا.

شابا صغيرا.. وعندما عرض هذه الفكرة على شارل – قدّم له سلاحا ودروعا؛ ليحارب بها جوليات، ولما ارتـداها داود وجد أنها لا تلائمه وفضل أن يحـارب جوليـات بمقلاعـه وحجره. وفعلاً قد انتصر عليه.

وأخيرا..

أريد أن أصل إلى نتيجة؛ وهي أن الأمير الذي لا يعتمـد على قواته الخاصة، لا يشعر بالطمأنينـة والسـلامة، فهـو على العكس يعتمد أولاً وأخيرا على حسن طالعـه لافتقـاره إلى الأساليب الصحيحة للدفاع في وقت الحاجة، وقـد أقـرّ الحكماء ورجال الحرب أنه ليس هناك أضعف من الإنسـان الذي يعتمد في قوته على قوة الآخـرين، وقـوات الإنسـان الخاصة هي تلك المؤلفة من مواطنيه ومن بني شعبه.

= وهكذا تحقق النصر لداود بقوة إيمانه واعتمـاده علـى نفسـه.. لا على أسلحة الآخرين.

إن غذاء العقل أعظم بكثير من غذاء البطن

سيدي الأمير:

إنه مما هو جدير بالذكر أن يقوي الإنسان معلوماته ودراساته في الأعمال التي يشغلها أو يمارسها..

فالأمير الذي يقوم بشئون إمارته عليه في وقت السلم أن يقوم بدراسة شاملة عن موقع إمارته وما حولها من هضاب أو تلال.. مرتفعات أو منخفضات.. أن يدرس تضاريسها ومناخها، طرقها.. وديانتها.. أنهارها.. غاباتها.. أن يترك حياة الترف جانبا وينتبه كثيرا لبلده وشعبه، وأن يدرس فن الحرب جيدا؛ إذ إن الحرب هو الفن الوحيد الذي يحتاج إليه من يتولى القيادة.

وقد استطاع فرانسيسكو سفورزا بفضل سلاحه أن يرتقي من إنسان عادي إلى منصب دوقية ميلان رغم أن أولاده فضلوا أن يعيشوا مواطنين عاديين؛ لأنهم كانوا يكرهون الحرب.

ولا شك أن امتلاك الجيش للسلاح وكيفية استعمال يجنب التعرُض للمهانة وللاحتقار والهزيمة الشنعاء.. إذ إن الإنسان المسلح يستطيع أن يدافع عن نفسه ووطنه عكـس الإنسـان غير المسلح، كما أن على الأمير أن يكـون أكثـر اهتمامـا بكل شيء في أيام السلم.. وأن يقوم بتدريب جنـوده جيـدا، وأن يكونوا على أتم استعداد لمواجهة أي طارئ، وأن يشغل وقته دائما بالصيد ويعود جسمه على المشاق، وأن يعرف كل شيء عن بلاده ويقرر أحسن السبل للدفاع عنها.

والأمير الذي يفتقر إلى هذه الموهبة تنعـدم فيـه أولـى الجوهريات التي يجب أن تتوفر في القائد؛ إذ إنها هي التـي تعلمه كيف يجد عدوه، وأين يقيم معسكره، وكيف يقود جيشه ويخطط لمعاركه، ويقوم بالدفاع والهجوم في وقت واحد.

هذا من ناحية دراسة فن الحرب وكيف يكـون مسـتعدا لها..

ومن ناحية أخرى..

ينبغي له أن يغذي عقله، وأن يقرأ ويدرس حياة عظمـاء الحرب السابقين.. أن يقرأ التاريخ، وأن يدرس حياة الرجال البارزين ويتعلم الشيء الكثير من حياتهم.. كيف انهزمـوا..

أو كيف انتصروا، وأن يقلد حياة الخالـدين العظمـاء مثـل الإسكندر الأكبر وشيبيوكورش، ولا شك في أن كل من قـرأ سيرة الآخرين من العظماء جيدا لوجد في حيـاتهم عظـات وعبر وحياة مليئة بالانتصارات والفوز على الأعداء.

نعم..

إن تغذية العقل أروع وأجمل بكثير مـن حيـاة التـرف أيها الأمير.. لأن بالعقل وحده يحيـا الإنسـان، ويسـتخدمه في كل الأوقات كي يسـتطيع أن يخطـط وينفـذ وينتصـر على الأعداء.

بالعقل وحده.. يملك الإنسان كل القـوى التـي يسـتطيع بها أن يواجه عدوه، وأن يجعله تحت سيطرته.

إن غذاء العقل أعظم بكثير من غذاء البطن.

إن ممارسة الفضائل تُجنب الفضائح

سيدي الأمير..

لقد كتب الكثيرون من الكُتاب عن القواعد والطرق التـي ينبغي على الأمير اتباعها.. لـذا أرى أنـه مـن الأفضـل أن أمضي إلى حقائق الموضوع بدلاً مـن تنـاول خيالاتـه لا سيما وأن الكثيرين قد تخيلوا جمهوريات وأمارات لم يكن لها وجود في عـالم الحقيقـة، وأن الطريقـة التـي نحيـا فيها تختلف كثيرا عن الطريقة التي ينبغي أن نعيش فيهـا.. ولا شك في أن الإنسان الذي يريد احتقار الطيبـة والخيـر في كل شيء يصاب بالأسى والحزن عندما يجد نفسه محاطًا بكثير من الناس الذين لا خير فيهم.

لذا فمن الضروري لكل أمير يود أن يحافظ علـى نفسـه أن يتعلم كيف يتجنب أن يكون طيبا أو محسنًا.. وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها تبعا للموقف الذي يتطلبه.

ولا شك أن جميع الرجال.. خاصة الأمراء الذين يكونون في مناصب معينة يتميزون بخصائص محددة قد تكون سـببا في مدحهم أو ذمهم..

ولذا..

قد يكون أحد الأمراء كريما.. بينما يكون الآخر بخـيلاً، وقد يكون أحدهم قاسيا فظيعا، والآخر رقيقًا مهذبا، وقد يعتبر الأول ناكثًا بوعده.. ولكن الآخر وفيا له.. قـد يكـون الأول متدينًا، والآخر ملحدا.

وهكذا تكون طبائع البشر مختلفة، متباينة، ليست متشابهة أو متحدة..

كما ينبغي على الأمير أن يتصف بالصفات الحسنة التـي ترمز إلى الخير، وأن يتجنب الصـفات التـي قـد تـؤدي إلى ضياع إمارته، وأن يحافظ بقدر الإمكان علـى طبائعـه الأخرى على أن يمارسها بكل تحفظ إذا لم يستطع أن يتخلى عنها، وقد أثبتت التجارب أن التعمق في درس الأمور يؤدي إلى الحصول على أن بعض الأشياء التي تبدو فضائل تؤدي إذا مورست إلى هدم الإنسان.. بينما توجد أشياء أخرى تبدو كرذائل ولكنها تؤدي إلى زيادة ما يحسُّ به المرء من راحـة وطمأنينة وسعادة وهناء.

من الأفضل أن تكون بخيلاً، من أن تكون لصا حقيرا.. مكروها

سيدي الأمير..

دعني أحدث سموكم عن أهم فضـيلة ينبغـي أن يمتـاز بها الإنسان وخاصة الأمير.. وهي فضيلة الكرم، إن الإنسان الكريم.. السخي يـرغم الإنسـان علـى حبـه واحترامـه – فالإنسان الذي يريد أن يكون مشهورا بالكرم بين النـاس يجب عليه ألا يتغافل عن أي نوع من أنواع العرض الـذي ينطوي على التفخيم إلى أقصى الحدود.

والأمير الذي يحاول أن يكون مشهورا بالكرم فوق طاقته المحدودة سيجد نفسه مضطرا في النهاية إذا أراد الاحتفـاظ بشهرته في الكرم إلى فرض ضرائب مرتفعة على شـعبه.. وأن يصبح مبتزا.. وأن يقدم على كل عمل يؤدي إلى كسب المال.. وهو إذا ما وصل إلى هذه الحالة، سـوف يكرهـه شعبه، ويكف الناس عن احترامه وتقديره، ويكـون بسـخائه قد أضر الكثيرين في سبيل نفـع الاقليـة، وسيشـعر بـأي

اضطراب مهما ضؤل شأنه، ويتعرَض للخطـر بعـد كـل مجازفة.

وإذا ما أدرك الأمير ذلك وبدأ في تغييـر نظـام حياتـه تعرَض فورا لتهمة البخل.. وسيرى الناس مع مرور الـزمن أنه كان سخيا كريما.. وذلك أنه عن طريق تقتيـره أصـبح يكتفي بدخله، ويؤمن وسائل الدفاع اللازمة ضد كل من يفكر في شن الحرب عليه، ويقوم بمشاريع كثيرة دون أن يرهـق شعبه؛ ويكون بذلك كريما حقًا مع جميع أولئك الذين لا يأخذ منهم أموالهم وهم كثيرون للغاية، وشحيحا مع أولئك الـذين لا يهبهم المال، وهم قلة ضئيلة.

ولقد استطاع ملك فرنسا شنَ عـدد مـن الحـروب دون أن يفرض أية ضرائب استثنائية على شـعبه؛ لأنـه غطـى بتقتيره الماضي جميع النفقات الطارئة التي تعرض لها.

ولهذا ينبغي على الأمير أن لا يعطي أية أهمية لاشتهاره بالبخل.. هذا إذا تجنب سرقة شعبه، وفي أن يكـون قـادرا على الدفاع عن نفسه وإمارته وتجنب الفقـر ومـا يرافقـه من مهانة، وأن لا يرغم نفسه على سلب أمـوال مواطنيـه، فالشح هو إحدى الوسائل التي تمكنه من أن يحكم.. وإذا كان

قيصر قد حصل على أعلى الرتب بالسـخاء. أو بتظـاهره على الاقل.. فإني أرد على ذلك بقولي: إنك إمـا أن تكـون أميرا، أو في طريقك إلى الإمارة، ويكون السخاء في الحالـة الأولى مضرا، أما في الحالة الثانية فمن الضـروري حتمـا أن يعتبرك الناس كريما، ولقد كان قيصر أحد الـذين تـاقوا لسيادة روما، ولكنه بعد أن وصل إلى هذه السيادة، لو عاش وما اعتدل في نفقاته لدمر تلك الإمبراطورية تماما.

لذا على الامير كي يكون كريما سخيا أن ينفق من أمواله الشخصية، ولا ريب في أن الكرم ضروري جدا للأمير الذي يزحف على رأس جيوشه،ويعيش على مـا ينهبـه ويسـلبه ويحصل عليه مـن الفديات،ويتصـرف بـأموال الآريـن؛ إذ لو لم يكن كريما لما تبعه جيشه،إذ إ إنفاقـك مـن مـال الآخرين لا يقلل من شأنك بل يرفع من قدرك.

وأخيرا..

على الأمير العاقل أن يتجنب قبل كل شـيء أن يتصـف بالحضارة أو يتعرض لكراهية.. لذا فمن الأفضل أن تكـون بخيلاً؛وهذا يعرضك للكراهية خيرا من أن تكون لصا؛ وفي هذه الحالة يعرضك للكراهية والتحقير وازدراء الناس لك.

ازرع الرحمة.. تحصد الحب

سيدي الأمير:

صفة هامة لابد لي أن أضيفها إلى الصفات التـي يجـب أن يتسم بها كل أمير.. ألا وهي الرحمة.

حقًا لقد كان قيصر بورجيا من ذوي القلوب القاسية ولكن قسوته هذه جاءت بالنظام والوحدة إلى روما، وفرضت عليها النظام والاستقرار، وإذا نحن دققنا النظر في هذا الموضوع، وضح لنا أنه كان أكثر رأفة من الشعب الفلورانسي، الـذي سمح رغبة منه في تجنب صفتي الغلظة والقسـوة بتـدمير بيسنويا.

ولذا ينبغي على الأمير أن لا يهتم بوصفه قاسيا إذا كانت قسوته هذه في صالح الوطن.. ولو قارنا بينه وبـين أولئـك الذين يفرطون في الرقة، فيسمحون بنشـوب الاضـطرابات التي ينتج عنها إراقة الدماء والنهـب والسـلب، ويتضـرر من هذه الأحداث عادة الشعب لوجدنا أن هذا الأميـر أكثـر رحمة منهم، ولقد قال فرجيل على لسان ديدو: "علـى كـل أمير، أن يواجه الحالات الحرجة، ومقتضيات الملْك الجديـدة

باتخاذ التدابير اللازمة، وحمايـة الملـك بإقامـة حـراس على مسافات بعيدة".

لذا ينبغي عليه أن يسيطر بطريقة خاصة.. معتدلة يلفهـا حسن التبصـر والإنسـانية؛ حتـى لا يـؤدي بـه خجلـه إلى التعصب وعدم التسامح.

ومن هنا.. أتساءل.. هل من الأفضل أن تكـون محبوبـا أكثر من أن تكـون مهابـا، أو أن يخافـك النـاس أكثـر من أن يحبوك..؟

والإجابة عن هذا السؤال بصراحة – هو أن من الواجـب أن يخافك الناس وأن يحبوك في وقـت واحـد، لمـا كـان من الصعب أن تجمع بين هاتين الصفتين فإن من الأفضـل أن يخافوك على أن يحبوك.

وينبغي على الأمير العاقل ألا يطمئن إلى وعود رعايـاه دون اتخاذ أية استعدادات أخرى إلـى الـدمار والخـراب؛ إذ إن الصداقة التي تقوم على أساس الشراء لا على أسـاس نبل الروح وعظمتها هي صداقة زائفة تُشْتش ـرَى بالمـال، ولا تكون أمينـة موثوقـة وهـي عرضـة أن لا تجـدها في خدمتك، ولا يتردد الشعب في الإساءة إلى ذلـك الـذي

يجعل نفسه محبوبا بقدر ترددهم في الإساءة إلى من يخافونه؛ إذ إن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزامـات التـي لا تهـدم، بالنظر إلى أنانية الناس عندما يخدم تحطيمهـا مصـالحهم، بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب، وهـي خشـية نادرا ما يكون مصيرها الفشل.

ورغم ذلك.. ينبغي على الأميـر أن يفـرض الخـوف منه بطريقة يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحـب إذ إن الخوف وعدم وجود الراهية قد يسـيران معـا جنبـا إلى جنب.. كما في إمكانه أن يمتنع عن التدخل في ممتلكات شعبه الخاصة بهم.. إذ إن من السهل على الإنسان أن ينسى وفاة والده ولكنه لا ينسى ضياع إرثه وأرضه.

وعلى الأمير أن يكون صـارما خاصـة عنـدما يكـون مع جيشه؛ إذ بدون هذه الصفة يسـتحيل عليـه أن يحـافظ على جيشه وشعبه، وكانت هذه الميزة يتميز بهـا هانيبـال، وعلى الرغم من قيادته لجيش هائل ضـخم مـن مختلـف الجنسيات، ويقاتل في بلاد أجنبية، لم يقع أي نـزاع بيـنهم، أو يظهـر أي عصـيان للأميـر لا فـي أوقـات سـعده ولا في أوقات نحسه، وقد جعلت منه دائمـا إنسـانًا مهابـا

ومخيفًا في نظر جنوده، ولو لم تكن فيه لما كانـت فضـائله الأخرى كافية لإحداث ذلك التأثير.

وأخيرا.. يا سمو الأمير.. ازرع الرحمة.. تحصد الحب.

ينبغي أن تكون رحيما.. شفوقًا خاصة أن الناس يحبـون وفقًا لأهوائهم وإرادتهم الخاصة، ولكنهم يخافون وفقًا لأهواء الأمير وإرادته.. والأمير العاقل هو الذي يستطيع أن يجعـل شعبه يحبه ويحترمه دون بغض أو كراهية.

كن ثعلبا لتميز الفخاخ -
وأسدا الترهب الذئاب

سيدي الأمير:

حقيقة يدركها كل إنسان، وهي أن الصفات الطيبة التـي ينبغي أن يتصف بها كـل أميـر هـي أن يكـون صـادقًا في وعوده، وأن يعيش في نبل وشرف لا في خبث ودهـاء، ولكن الحياة أثبتت عكس ذلك؛ إذ إن كل مسئول سواء كـان رئيسا أو أميرا لم يهتم أبدا بوعوده التي وعد بهـا شـعبه، وقد استطاع بالمكر والحيلة الرخيصة أن يضحك على عقول شعبه ويحقق ما يريده هو.

وينبغي أن تعرف أن ثمـة طـريقتين للقتـال.. الأولـى بواسطة القانون.. والأخرى عن طريق القوة، ويلجأ البشـر إلى الطريقة الأولى، أما الحيوانات فتلجأ إلى السبيل الثـاني، ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية لتحقيـق الهـدف فإن الإنسان قد يلجأ إلى الطريقة الثانية.. ومن الضـروري للأمير أن يعرف استخدام الطـريقتين معـا – أي طريقـة الإنسان، وطريقة الحيوان – وهذا ما ينصح به قدماء الحكام

في الماضي مستشهدين بأخيل وغيره من الأمراء الأقـدمين الذين عهِدَ بهم إلى شـيرون القنطـور الخرافـي (حيـوان) لتربيتهم وتعليمهم على نظامـه، وهـذا الرمـز الخرافـي – نصف الإنسان ونصف الحيوان – قُصِدَ منـه أن يشـير إلى أن الأمير يجب أن يـتعلم الطبيعتـين معـا الإنسـانية والحيوانية، وأن إحداهما لا يمكن أن تحيا بدون الأخرى.

نعم..

على الأمير أن يتعلم طريقة عمل الحيوان، أن يقلد الأسد والثعلـب معـا؛ إذ إن الأسـد لا يسـتطيع حمايـة نفسـه من الشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسـه أمـام الذئاب؛ ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلبا ليميز الفخاخ، وأسـدا ليرهب الذئاب، وكل من يتمنى أن يكون مجرد أسد ليس إلا لا يفهم هذا، وعلى الحاكم الـذكي المتبصـر أن لا يحـافظ على وعـوده عنـدما يـرى أن هـذه المحافظـة تـؤدي إلى الإضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دفعته إلى إعطاء هذا الوعد لم تعد قائمة، ولن يعـدم الأميـر الـذي يرغـب في إظهار مبررات متلونة للتنكر لوعوده ذريعة مشـروعة لتحقيق هذه الغايات، ولقد استطاع العديد من الأمراء التنكـر

لمواثيق السلام فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها، وأن يبرهنوا على أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليدا طيبا قد نجحوا أكثر من غيرهم.. ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتميز بهذه الميزة أن يحاول إخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهنًا كبيرا، ومحتالاً عظيما، ومن خصائص الناس الطيبين أن يكونوا من البساطة بحيث يصدقون؛ ولذا فإن من يتقن فن الخداع يجد دائما من يقعون في حبائله ويصدقون أكاذيبه.

والتاريخ يقدم لنا خير شاهد على ذلك..

لقد كان البابا الكساندر السادس نموذجا هائلاً للرجل المخادع طوال فترة حكمه.. وكان يجد الفرصة للنجاح في خداعه، ولم يكن ثمة من يفوقه مهارة في تقديم الوعود – داعما إياها بالإيمان المغلظة، في الوقت الذي لم يكن هناك من هو أقل تمسكًا بها، ومع ذلك فقد نجح دائما في خداعه.. إذ إنه كان يتقن هذه الطريقة في معالجة الأمور وفي تثبيت نفسه على كرسي البابوية.

ولكن لا ينبغي للأمير أن يتميز بكل ما أوردته من صفات.. ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه، كذلك يجب عليه أن يتظاهر بالرحمة وحفظ الوعد، والشعور الإنساني النبيل والإخلاص والتدين، وأن تكون فعلاً متصفًا بها، ولكن عليك أن تؤهل نفسك عندما تقتضي الضرورة لتكون متصفًا بعكسها، ويجب أن يفهم ويدرك جيدا أنه لا يستطيع أن يتمسك بجميع هذه الأمور التي تبدو خيرا في الناس؛ إذ إنه سيجد نفسه مرغما للحفاظ على دولته لأن يكون متفانيا مخلصا للعهود، وللرأفة والإنسانية والدين؛ ولذا فإن من واجبه أن يجعل عقله مستعدا للتكيف مع الرياح كذلك ينبغي عليه أن يكون حريصا على أن لا يفضح نفسه بأقواله مما يتناقض مع هذه الصفات الخمس، وعليه أن يجعل الناس يرون فيه ويسمعون منه الرحمة مجسده، والوفاء للعهود والنبل والإنسانية والتدين، ولعل هذه الصفة الأخيرة هي أكثر الصفات لزوما وضرورة؛ إذ إن الناس عموما يحكمون بعيونهم أكثر من عقولهم، فجميع الناس يرون ما تعمل، وكيف تظهر لهم، أما القلة فيحسون حقيقتك، وستتردد هذه القلة في معارضة

رأي المجموع الذين يعتمدون على عظمة الدولة في الـدفاع عنهم، وفي أعمال جميع الناس، ولا سيما الأمـراء، وهـي حقيقة لا استثناء فيها، تبرر الغاية الواسطة – وهـذا حكـم لا يمكن نقضه، فعلى الأمير إذن أن يهدف للفـوز بالولايـة والمحافظة عليها – وسوف يحكم الجميع على وسائله بأنهـا شريفة ويمدحونها أيضا، فجميع الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي، وهذا العالم لا يتكون إلا من هـؤلاء العامة، أما غير الساذجين فهم قلة تنعزل حين تجـد الكثـرة مجتمعة حول الأمير، وهناك أمير في عصرنا، كـان كـل ما يفعله هو الدعوة إلى السلام والمحبة، وهو فـي الحقيقـة عدو لهما، ولو أنه اهتم بأي منهما لفقد دولته وخسر اسـمه وعرشه.

الحب، والكراهية.. عملة ذات وجهين

سيدي الأمير:

اسمح لي أن أوضح لسموكم.. كيف يكون الأمير محبوبا من شعبه.. وما الصفات الطيبة التي يجـب أن يتسـم بهـا، إنه قبل كل شيء يجب أن يكون قويا يتسم بفضـائل طيبـة، وأن يتجنب كل ما يعرضه للكراهية والاحتقار، وألا يغتصب ممتلكات رعاياه ونساءهم حتى يعيش الشعب راضيا، قانعـا، وقد يعتَبرُ الأمير حقيرا إذا رأى الناس فيه تقلبه، وتفاهتـه، وجبنه، وتخنثه، وهي أمور ينبغي أن يقـي الأميـر نفسـه منها على اعتبار أنها الصخرة التي تمثل الخطر، وأن يـدير أعماله بحكمة وتعقل، وأن يتمسك بقراراته فلا يسمح لإنسان بالاحتيال عليه أو خديعته، وعليه أن يخشـى مـن أمـرين: الأول داخلي تتعلق برعيته، والأمر الثاني خارجي ويتعلـق بالدول الأجنبية، وفي إمكانه أن يدافع عن نفسه ضد أي قوة خارجية بحيازتـه الأسـلحة القويـة الحديثـة والأصـدقاء المخلصين، ومثل هـؤلاء الأصـدقاء يكثـرون إذا تـوفر له السلاح والقوة، وتبقى الجبهة الداخلة هادئة إذا لـم تخلـق

المؤامرات والاضطرابات فيها وإذا صمد بدوره في موقفه – أن يتحمل أي هزة ولعل خير علاج واقٍ مـن المـؤامرات أن يكون محبوبا من كل شعبه وأن يكون راضيا عنه، أما إذا كان مكروها ويحسُّ بعداء الشعب له، فإن عليـه أن يخشـى من كل إنسان ومن كل شيء.

ولا شك أن فرنسا وهي من أعظم الدول تنظيما وحكمـا فإننا نجد فيها عددا كبيـرا مـن المؤسسـات التـي تعتمـد عليها حرية الملك وسلامته، وفي مقدمـة هـذه المؤسسـات – البرلمان وسلطته – إذ إن الذي أنشأ هـذه المملكـة كـان يعرف جيدا مطامع النبلاء العظام وحماقـاتهم، فـرأى أنـه من الحكمة تلهيتهم بشيء يسـد أفـواههم لكـبح جمـاحهم، وقد أدرك من ناحية أخرى ما تحمله الجماهير من كراهيـة لهؤلاء النبلاء ترتكز إلى الخوف، ورغبة منه فـي مـنحهم الطمأنينة، أراد أن يجنب الملك جعل هذا الموضـوع محـل عنايته القصوى لينقذه مما يتعرَّض له مـن سـخط النـبلاء إذا أرضى الشعب، ومن سخط الشعب إذا أرضـى النـبلاء؛ ولهذا فقد أقام قاضيا ثالثًا لا يخضع لأوامر الملك مباشـرة، ويكبح جماح العظماء، ويعطف على جماهير الشعب وليست

هناك من وسيلة أكثر حكمة من هذه الوسيلة وذلـك لتـأمين سلامة الملك والمملكة؛ ولذا ينبغـي علـى الأميـر الحكـيم أن يحترم النبلاء في إمارته شريطة أن لا يؤدي احترامه هذا إلى أن يكرهه شعبه، هذا الشعب الـذي يحـب الطمأنينـة والسلام ويميل تبعا لذلك إلى الأمراء المسالمين.

ولذا.. فإن ماركوس وبيرتيكنس، والكسـاندر، وبـالنظر إلى حياتهم المتواضعة وحبهم للعدالـة، وعـدائهم للقسـوة والغلظة وإنسانيتهم، وميلهم إلى الخير، كلهم انتهوا إلى نهاية محزنة باستثناء ماركوس الذي عاش ومات محتفظًا بشـرفه؛ لأنه ارتقى قمة الامبراطورية عن طريـق حقـه الـوارثي، ولم يكن مدينًا بشيء لا إلى جنوده ولا إلى شـعبه يضـاف إلى هذا أنه كان يتمتع بفضائل عدة جعلت منه إمبراطـورا محترما.. قويا.

أما بيريتنكس.. فقد أُنْتُخِبَ امبراطور رغم إرادة الجنـود الذي ألفوا حياة الفسق والفجـور؛ ولـذا فقـد شـق علـيهم أن يعيشوا حياة الشرف التي أراد بيرتينكس فرضها علـيهم، وهكذا عرَض نفسه لكراهيتهم خاصة وأنه كان كبيرا مسنًا.

ونستنتج من هذا أنه قد تنجم الكراهية عن الأعمال الطيبة بقدر ما تنجم عن الأعمال الشريرة!!

ولذا.. ينبغي على الأمير الـذي يحـافظ علـى دولتـه أن يرتكب الشر أحيانًـا.. وعليـه أن يسـير مـع التيـار، وأن يعمل على إرضائه وفي مثل هذه الحالة تكون الأعمـال الطيبة مؤذية ومضرة، ونحن إذا نظرنا إلى حياة الكسـاندر، فقد كان في منتهى الطيبة طوال فترة حكمه، ولم يحكم علـى أي إنسان بالموت إلا بعد محاكمة عادلة، ومع ذلك فقد أُعتُبِرَ مخنثًا؛ لأنه سمح لوالدته أن تـتحكم فيـه.. وهكـذا هـبط إلى مستوى الرزايا والكراهية؛ فتآمر عليه الجيش وقتله.

ولما كان ينبغي على الأمير أن يجمع بين صفات الثعلـب والأسد، فقد عرف سيفيروس، وكان يقود الجيش الرومـاني في سلافونيا بما عليه الإمبراطور جوليانوس من كسل وتراخٍ فأقنع جنوده بأن من الخير أن يذهبوا إلى روما للثأر لمقتـل الإمبراطور بيرتنكس الذي ذبحه رجال الحرس البريتـوري، وبهذه الحجة، ودون أن يكشف عن مطامعه فـي العـرش.. زحف على رأس جيشه إلى روما، فوصل إلى إيطاليا قبـل أن ينتشر خبر مغادرته لسلافونيا، وعندما وصل إلى رومـا

انتخبه مجلس الشيوخ إمبراطورا خوفًا منه وفزعـا، وقتـل جليانوس، وبعد هذه البداية الناجحة، واجه سيفيروس عقبتين بالغتين قبل أن يتمكن من السيطرة كليا على الإمبراطورية.. أولهما.. كانت في آسيا حيث أعلن نيفرنوس قائـد الجيـوش الآسيوية نفسه إمبراطورا، وأما ثانيتهما فكانت فـي الغـرب حيث يطمع البينوس فـي عـرش الإمبراطوريـة أيضـا.. ولما وجد أنه من الخطأ أن يكون معاديا للقائدين فـي وقـت واحد، فقد عزم على مهاجمة نيفرينوس، وخديعة البينـوس، فكتب إليه معربا عن رغبته في إشراكه في هذا الشرف الذي أضفاه عليه مجلس الشيوخ بإعلانه شريكًا له، وهذه أكذوبـة صدَقها البينوس وخُدِعَ بها، وبعد أن تـم لسـيفيروس هـزم نيفرنيوس وقتله، وتهدئة الأمور في الشرق عاد إلى رومـا، واتهم البينوس في مجلس الشيوخ بالتنكر للنعم التي أغـدقها عليه والتآمر عليه لقتله وخيانته؛ وإنه لذلك يجد نفسه مرغما للذهاب لمعاقبته على نكران الجميل.

وزحف الإمبراطور المنتصر إلى فرنسـا حيـث تقابـل مع خصمه وقضى عليه.

وهنا.. تبدو لنا الصورة واضحة جليـة.. لقـد وضـحت صورة سيفيروس جلية.. لقد كان ليثًا كاسرا، وثعلبا ماكرا.. وأن الجميع كانوا يخشونه ويحترمونه حتـى جيشـه أيضـا كان يحبه ويحترمه.

وكان أبوه أنطونيوس أيضا يتمتع بصفات جعلته محبوبـا من شعبه خاصة أنه كان يكره الرفاهية والبذخ.

ولكنه كان يمتاز بشراسة وغلظة؛ إذ أمر بقتل عدد كبيـر من الشعب ومن سكان رومـا؛ هـذا ممـا دفـع المقـربين إليه أن يخشوا بأسه وقد كرهه العالم بأسره، وانتهى أسـيرا قتيلاً على يد أحد أفراد جيشه.

أما كومودوس الذي ورث الحكم عـن أبيـه مـاركوس، ولقد كان يحذو حذو والده في إرضاء الشعب والجيش ولكنه كان في الوقت نفسه فظًا.. ووحشًا في طباعـه وتصـرفاته، فعمد رغبة منه في ممارسة جشعه على رعاياه إلى إرضـاء جنوده والعطف عليهم بأن دفعهم إلى حياة العهر والفجـور، ولم يحتفظ من الناحية الأخرى بالوقـار والاحتـرام الـذي يفرضه على منصبه، فكان يقترف أعمـالاً مشـينة، مخلـة

بالآداب لا تليق بالإمبراطور؛ مما جعل جنـوده يكرهونـه ويحتقرونه – ثم يقتلونه.

هذه.. يا سيدي الأمير صور حقيقية مـن حيـاة هـؤلاء الأمراء والأباطرة.. كيف عاشوا حياتهم مليئـة بالأحـداث، وكيف كانوا يواجهون المصاعب، وكيف كـانوا مضـطرين إلى إرضاء جنودهم في دولهم بدلاً من الشـعب.. أمـا الآن فإن إرضاء الشعب بالنسبة إلى جميـع الأمـراء باسـتثناء – خاقان – الترك والسلطان أمر أكثر ضرورة من إرضـاء الجنود؛ إذ إن في وسع الشعب أن يعمل أكثر مـن الجنـود، وقد استثنيت سلطان الترك؛ لأنه يحيط نفسه دائما بعدد هائل من الجنود والمشاة يربو عن الثلاثـين ألفًـا مـن الرجـال الحراس، وعليهم ترتكز دعائم دولته وأمنها وقوتها.

والجدير بالذكر أن نلاحظ أن دولة السلطان تختلف تماما عن دول الأمراء الآخرين؛ إذ إنها تشبه البابويـة المسـيحية في استحالة تسميتها بالمملكة الوراثية، أو المملكة المستحدثة ذلك لأن أبناء الأمير المتوفى لا يخلفونـه علـى العـرش، وإنما يخلفه أولئك الذين يرشحهم أصحاب الشـأن والسـلطة لهذا المنصب.

ونستنتج من هذا كله أن الكراهية والـبغض كانـا دائمـا السبب الرئيسي في سقوط الأباطرة أو إلى نهايات سـعيدة.. خالدة.

إن قلوب شعبك هي القلعة التي تشيدها وتحميك من غدر الأعداء

سيدي الأمير:

في هذه السطور القلائل دعني أحدث سموكم عن الثقـة.. ثقة الشعب في أميرهم.. وثقة الأمير في شعبه.. إنه بـدون الثقة.. لا يكون الأمان أو الطمأنينة؛ فـالأمير الـذي يثـق في شعبه ويعطيه الأمان لا يجرده من السلاح لأنه يخشـاه.. أو خوفًا منه أن يستخدمه ضده.. لذا ينبغي عليـه أن يبقـي معه السلاح ليدافع به عنه وعن نفسه.. وعن وطنه، وإن كان هذا الشعب مجرَدا من السلاح فينبغي على الأميـر العاقـل أن يمدَهم بالسلاح، فمن كان منهم موضع شك وريبة، أصبح مخلصا متفانيا، ومن كان باقيا على الإخلاص والولاء بقـي على هذا الولاء، ولما كان من الصعب تسليح جميـع أفـراد الشعب، فإن إخفاء هذا الامتياز على البعض يمكنك التعامـل مع الآخرين بطريقة أكثـر أمنًـا وسـلاما، وهـذا التميـز في المعاملة يجعلهم أكثر التزاما نحوك.

أما إذا فكرت في نزع السلاح منهم، فإنك تشرع في الإساءة لهم وكأنك تسحب منهم الثقة.

وهذا ما يولد الكراهية ضدك، ولما كان من الصعب عليك أن تظل دون قوات مسلحة، فإنك ستجد نفسك مضطرا إلى اللجوء إلى قوات مرتزقة؛ وهي قوات ضررها أكثر من نفعها، ولذا ينبغي على الأمير العاقل أن يقوم دائما بتسليح رعاياه وتجنيدهم؛ ليكونوا مستعدين دائما للدفاع عنه وعن وطنهم وممتلكاتهم.

ويصبح الأمراء بلا ريب عظماء عندما يتخطون العقبات والصعاب؛ ولذا فإن الحظ عندما يريد أن يعظم من شأن أمير جديد هو في حاجة إلى الحصول على الشهرة البالغة أكثر من زميله الأمير الوراثي يخلق له الأعداء ويرغمه على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم ليرتقي أثر ذلك عاليا السلم الذي وضعه أعداؤه في طريقه، ويعتقد الأغلبية أن على الأمير العاقل إذا أتيحت له الفرصة أن يخلق بمكر وحيلة ودهاء عداوات له، حتى إذا ما هزم هؤلاء الأعداء.. ارتقى وضاعف من عظمته وقوته وشهرته..

ومن جهة أخرى.. يلجأ عادة بعض الأمراء رغبة منهم في الحفاظ على دولهم بأمان وسلام.. أن يشيدوا القلاع والحصون أو الأسوار العالية حول ممتلكاتهم؛ كي ترد عنهم أطماع الراغبين في الاحتلال، وكملجأ آمن يأوون إليه في حالات الهجوم المفاجئ، وإني لأوافق على هذه الطريقة؛ فقد استعملت منذ أقدم العصور، ومع ذلك فقد رأينا السيد نيكولو فيتلي يدمر قلعتين في سينادي كاستيلو؛ رغبة منه في الحفاظ على تلك الدولة، وعندما رجع غيدو بالدو، دوق أوربينو إلى مقاطعته التي كان قد طرده منها قيصر بورجيا، هدم جميع القلاع في تلك المقاطعة معتبرا أنه بدونها، سيكون من الصعب عليه أن يسخر مقاطعته من جديد، وقامت أسرة بنتتفوغلي عند رجوعهم إلى بولونا بتدمير مماثل؛ ولهذه الأسباب تكون القلاع نافعة أو غير نافعة وفقًا للأوضاع والأزمنة، وبالتالي فإن على الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يشيد القلاع، أما الأمير الذي يخشى الأجانب أكثر من شعبه ففي وسعه أن يستغني عنها؛ فقلعة ميلان التي بناها فرانسيسكو سفورزا كانت مصدر متاعب وإزعاج لعائلة سفورزا أكثر من أي

اضطراب آخر في الدولة، ولذا فإن خير قلعة يقيمها الأمير تكون في قلوب شعبه إذ على الرغم من إقامته للقلاع فليس في وسعها حمايتك إذا كان شعبك يكرهك.

وأخيرا.. أيها الأمير.. دعني أقدم لك هذه النصيحة الغالية.

إن قلوب شعبك هي القلعة التي تشيدها وتحميك من غدر الأعداء.

كي تكتسب الشهرة، عليك أن تعمل أعمالاً مجيدة تخلد بها ذكراك

سيدي الأمير:

كيف تنال الشهرة.. العظمة، الخلود..؟!

إنه لن يستطيع أي إنسان أن يكون مشهورا.. إلا إذا أقدم على عمل عظيم ينال بواسطته الشهرة والمجد.

ومثال ذلك.. فرديناند ملك الأراغون، والملـك الحـالي لإسبانيا.. لقد ارتقى هذا الملك إلى قمـة المجـد والشـهرة ليصبح ملك المسيحية الأول، ولقـد بـدأ عهـده بمهاجمـة غرناطة، فكانت مغامرته هذه الحجر الأساسي في مملكتـه، وكان يعمل في البداية في وقت فراغه ووفقًـا لأهوائـه دون أن يخشى تدخلاً من أحـد فأشـغل بـذلك عقـول فشـتالة في مشروعه، حتى أنهـم مـن جـراء انشـغال تفكيـرهم في الحرب، لم يتوفر لديهم الوقـت للتفكيـر بـأي ابتكـار أو ابتداع؛ وهكذا حقق لنفسه الشهرة التـي كـان يتمناهـا، واستطاع بالأموال التي كان يأخذها من الكنيسـة ويجمعهـا من الشعب المحافظة على جيوشه وخوض تلـك الحـروب

الطويلة التي كان يحقق فيها انتصـارات عظيمـة، يضـاف إلى هذا أنه رغبة منه في القيام بمشـاريع أضـخم وأكبـر، وتحت ستار الدفاع عن الدين، عمد إلى الاضطهاد الـديني، فطرد العرب من مملكته، وسلبهم كل ما يملكون، وليس هناك من مثل أقسى ولا أكثر شذوذًا من هذا، وقام بمهاجمة أفريقيا محتجا بنفس الذريعة، وقام بمغامرته الإيطالية، وشرع أخيرا في الهجوم على فرنسا؛ وهكذا.. فقـد كـان دائمـا يبتـدع المشاريع العظيمة مما حير عقول رعاياه وأذهلهم، وجعلهـم مشغولين دائما بالتطلع إلى النتائج، وكانت هذا الأعمال مثالية حتى استطاع أن ينسى الشعب أن يقوم بأي عمل ضده.

لذا.. على الأمير العاقل أن يحاول في كـل مـا يفعلـه الحصول على قدر كبير من الشهرة؛ كي يستطيع أن يرتقـي إلى ذروة الشهرة، وكي ينال الاحترام والتقدير.

ويذكر التاريخ أن الأتيوليون طلبـوا مـن انطيوخـوس الحضور إلى بلاد اليونان لطرد الرومان منها، فلبى طلـبهم، وأرسل أنطيوخوس بالرسل والخطباء إلى الأخيين أصـدقاء الرومان من جهة أخرى بخوض المعركـة إلـى جـانبهم، وعرضَ الموضوع في مجلس الأخيين لمناقشته، وعندما قام

سفير انطيوخوس يحاول إقناعهم بالتزام الحياد، رد عليه السفير الروماني قائلاً: ليس أبعد عن الحقيقة مما استمعتم إليه من قول، من الأفضل والأجدى لدولتكم عدم التدخل في الحرب؛ إذ إن عدم تدخلكم فيها سيجعلكم مفتقرين إلى كل عطف وكل سمعة بالإضافة أنكم ستصيرون الجائزة التي سيحصل عليها المنتصر مهما كان..

وقد يحدث غالبا أن من لا يكون صديقا لك، يطلب منك أن تظل على الحياد، أما صديقك فيطلب منك أن تحمل السلاح إلى جانبه.

ولذا يقف بعض الأمراء المترددين موقف الحياد؛ تجنبا للأخطار، أما البعض الآخر فيعلن وقوفه إلى أحد الجانبين ويقدر لهذا الجانب أن ينتصر، فإنه يشعر على الرغم من قوته، ومن بقاء الأمير تحت رحمته بنوع من الالتزام تجاهه؛ إذ إن صداقة متينة قد أقيمت، وليس من عادة الناس أن يتنكروا للشرف وأن يضطهدوا من ساعدهم متنكرين لجميله على هذا النحو، أما إذا هزمَ هذا الجانب فستجد المأوى لديه ويهب لمساعدتك بقدر الإمكان وتصبح بذلك رفيقًا لطالع قد يشرق مرة ثانية ويرتفع.

وينبغي على الأمير العاقل أن يتجنب الارتباط في قضـية مشتركة مع أمير آخر أقوى منه لإلحاق الضرر بأمير ثالـث إلا إذا أرغمته الحاجة على ذلك، كما ينبغي علـى الأمـراء أن يتجنبوا بقدر استطاعتهم الوقوع تحـت رحمـة غيـرهم وإرادتهم وأهوائهم.

كما على الأمير أن يظهر نفسه دائمـا ميـالاً إلـى ذوي الكفاءة والجدارة، وأن يفضل المقتدرين، ويكـرم النـابغين في كل فن، وعليه أن يشجع المواهب وإقامة المشاريع التـي تفيد بلاده في كافة النواحي، كما يقدم المنح والجوائز للنابغين حتى يستطيع كل فرد من شعبه أن يعمل على تحسين حالتـه الاجتماعية.. ويعمل على تجميل مدينته، ويقيم الاحتفـالات في المناسبات القومية والأعياد، وأن يختلط بالشعب ويحـل مشاكله بكل ود وحب.

نعم.. مولاي..

كي تكسب الشهرة.. عليك أن تعمل أعمالاً مجيدة تخلـد بها ذاكراك..

إن الأنانية هي الصعود إلى الهاوية
أما الوصول إلى القمة فهو تحقيق المبادئ السامية وخدمة الوطن بإخلاص

سيدي الأمير:

يقول المثل.. إن يدا واحدة لا تصفق.. إذن لا بد للإنسان أن يكون له يدان كي يستطيع أن يصفق بهما.. كذلك لا بـد للأمير أن يكون له مساعدون كي يساعدونه في حكم ولايتـه الواسعة والحفاظ على سلامتها.. لابد أن يكون له مجموعـة من المساعدين.. وهؤلاء هم.. الوزراء..

وكي يكون هؤلاء المساعدين مخلصين وأمناء فـي إدارة شئون المدينة.. من الضروري جدا أن يكونوا على مسـتوى المسئولية التي تعهد إليهم، ولابد أن يكونوا من المخلصـين الأكفاء، وموضع ثقة تامة من الأمير والشـعب، وأصـحاب عقول مفكرة مدبرة.. وهناك ثلاثة أنواع من العقول: أولهـا يدرك الأمور دون عون أو مساعدة، ثانيا يدركها بمسـاعدة الآخرين وإرشادهم، ثالثًا لا يدركها لا بالمساعدة ولا بدونها..

والنوع الأول ممتاز، والثاني – جيد – أما الثالث والأخيـر فلا جدوى منه.

وعندما يتوفر للأمير الحكم على معرفة الخير من الشـر، في ما يفعله الآخرون أو يقولونه، فإنـه حتـى لـو افتقـر إلى الابتكار والذكاء، يستطيع أن يميز بين أعمـال وزيـره الطيبة، وأعماله السيئة، وأن يصلح الأخيرة منهـا ويشـجع الأولى؛ وآنذاك لا يفكر الوزير في خداع أميره، وإنما سيظل مخلصا وفيا.

وأيضا.. يستطيع الأمير أن يعرف جيدا إذا كان وزيـره أمينًا أم لا.. على مستوى هـذه المسـئولية التـي عهـدت إليه أم أنه يكتفي بهذا اللقب الذي مِنحَ له وهو – الوزير -؟

لذا.. أمام الأمير طريقة تمكنه من معرفة وزيره واختياره وهي طريقة لا تخطئ أبدا، فعندما يفكر الوزير بنفسه أكثـر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصـالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يصلح لأن يكـون وزيرا مسئولاً، ولن يكون فـي وسـعك الاعتمـاد عليـه؛ إذ إن من تُعهد إليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر قط في نفسه.. وإنما بالأمير.. والوطن، وأن لا يهتم بأي شـيء

سوى ما يتعلق بالأمير، وعلى الأمير بدوره لكـي يحـتفظ بولاء وزيره وإخلاصه أن يغـدق عليـه المـال ومظـاهر التكريم، ويعهد إليه بالمناصب ذات المسئولية، بحيث تكـون هذه الأموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية ولا تجعلـه يطمع بثروات أخرى أو امتيازات جديدة، وعندما تكون بـين الأمير ووزيره علاقة حب وتفـاهم لأجـل خدمـة الـوطن وسلامته فإن الحياة الهادئة السعيدة سوف تشـرق بشمسـها الدافئة على أرض الوطن.. وسوف يعيش الشعب في أمـن وسلام.. وليعلم كل من الأمير.. والوزير أن الأنانيـة هـي الصعود إلى الهاوية أما الوصول إلى القمـة فهـو تحقيـق المبادئ السامية وخدمة الوطن بإخلاص.

النفاق.. خديعة شيطانية سرعان ما تشرق عليها شمس الحقيقة فتكشفها وتعريها

سيدي الأمير:

لعل من أردأ الصفات التي يتصف بها بنو البشـر صـفة – النفاق- أن يكون الإنسان منافقًا.. مداهنًا كاذبا.. لا يقـول الصراحة أو الحقيقة.. يحاول أن يفرض رأيه مهمـا كـان شرا..، يجعل كل شيء طيبا أو رديئًا حسب مزاجه وتفكيره، وما أكثر هؤلاء الناس – المنافقون – الذين تمتلئ بهم الحياة وخاصة في قصور الأمراء والملوك، إنهم يتكلمون بالنفـاق والخداع كي يصلوا إلى تحقيق أهدافهم بالكذب.. إن هـؤلاء القوم.. هم سفهاء الناس.. جراثيم وميكروبات تنفث سمومها في جسد المجتمع وتغرز مخالبها فيه.

والأمير العاقل هو الذي يستطيع أن يقي نفسه مـن هـذا الوباء، وليست هناك طريقة أفضل من وقاية نفسك من النفاق من أن تجعل الجميع يدركون أنهم لن يسيئوا إليـك، أمـا إذا جابهوك بالحقيقة – فإنك تفقد احترامهم.

لذا.. أيها الأمير.. ينبغي أن تختـار لمجلسـك حكمـاء الرجال، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية في الكـلام وإبـداء الرأي، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضـيع التـي يسأل عنها ولا تتعداها.. أن يسألهم عن كل شيء وأن يستمع إلى أرائهم في كل شيء، وأن يفكر فـي الموضـوع الـذي نوقش بعد وذلك بطريقتـه الخاصـة، وعليـه بعـد ذلـك أن لا يستمع إلى أي إنسان، بل يـدرس الموضـوع بنفسـه على ضوء آراء مستشاريه، ويتخذ قراراته التي لا يتراجـع عنها، أما الأمير الذي يسير على طريقـة مختلفـة فيتهـور متأثرا بآراء المداهمين والمنافقين أو يبـذل قراراتـه وفقًـا للآراء المتعددة التي تطرح عليه فإنه يفقد كل احترام وتقدير.

لذا على الأمير العاقل أن يقبل النصـيحة دائمـا، ولكـن عندما يريد هو، لا عندما يريد الآخـرون.. وعليـه أيضـا أن لا يشجع المحاولات لإسداء النصيحة إليه إلا إذا طلبها.. ولكن عليه أن يكثر مـن سـؤالها وأن يحسـن الإصـغاء إلى الحقائق التي تُسرَدُ عليه عندما يسأل عنها.

ولما كان من رأي بعض الناس أن الأمير الـذي يشـتهر أمره بالتبصر والحكمة، لا تعـزى شـهرته علـى طبيعتـه

بل إلى خبرة المستشارين الذين يلتفون حوله.. ولكـن هـذا الرأي خاطئ؛ فالقاعدة العامة التي لا شواذ لهـا أن الأميـر الذي لا يتصف بالحكمة لا يمكن أن يشـار عليـه بطريقـة صالحة إلا إذا ترك نفسه عرضا وبصورة كلية بـين يـدي شخص واحد يتحكم فيه تحكما كليا، وكان هذا الشخص عاقلاً متبصرا، وفي هذه الحالة قد يحكم الأمير حكما صالحا ولكن هذا الأمير لن يدوم طويلاً أو أن الحـاكم بـأمره سـرعان ما ينتزع منه سلطانه ودولته.. أما إذا استشار هـذا الأميـر البعيد عن الحكمة الكثيرين فلن تتوفر له المشورة الجماعيـة المتحدة ولن يكون في إمكانه أن يوحد بين الآراء التي تشار عليه لتكتسب صفة الإجمـاع.. إذ إن مـن شـيمة النـاس أن يخادعوك وينافقوك؛ ولهذا فإن المشورة الحكيمة حيثمـا جاء يجب أن تكـون خاضـعة لحكـم الأميـر وتبصـره وألا يصدق المشورات التي تعـرض عليـه مهمـا كانـت صادقة.. ولذلك يفعل كما فعل النبي سليمان الحكـيم عليـه السلام إذا أراد أن يكون حكيما [1].

---

(١) سليمان الحكيم هو ابن داود النبي، لقد تولى الحكم بعد وفاة والـده (فظهر الرب لسليمان في جعبون في الحلم ليلاً، وقال الله سل مـا =

أعطيـك إيـاه، فقـال سـليمان إنـك قـد أبـديت لعبـدك داود أبي إحسانًا عظيما، كما مشى أمامك بالحق وبالبر وباستقامة القلب معك وقد حفظت له هذا الإحسان العظيم ورزقته ابنًا ليجلس علـى كرسيه كما هو اليوم.. والآن أيها الرب إلهي قد جعلت عبدك ملكًا مكان داود أبي وأنا صبي لا أعلم كيف أخرج أو أدخل، وإن عبدك في وسط شعبك لا يعد ولا يحصى كثرة، فأعط عبدك قلبا سـميعا ليحكم بين قومك ليميز بين الطيب والرديء؛ لأنه مـن يقـدر ان يحكم بين شعبك هذا العظيم. فحسن الكلام في عيني الـرب بـأن سليمان سأل هذا الأمر، فقال له من أجل سألت هذه الأمـر ولـم تسأل لك أياما كثيرة ولم تسأل ربك غنى ولم تسأل نفسي أعـداءك ولكن سألت لك فهما لتسمع الحكمه، فها أنا قد فعلت ككلامك ها أنا أعطيك قلبا حكيما وذا دراية حتى أنه ما كان قلبك مثلك ولن يقوم من بعدك مثلك، وقد أعطيتك أيضا ما لم تسأله من الغنى والشرف حتى لا يكون بين الملوك أحد مثلك أيامك كلها، وإن كنت تسـلك في طريقي لتحفظ فرائضي ووصاياي كما سلك داود أبوك فـإني أطيل أيامك. (سفر الملوك إصحاح ٣).

عشْ بطلاً ولا تمتْ جبانًا

سيدي الأمير:

لقد سبق لي وتكلمت كثيرا عن الصفات والمميزات التـي ينبغي أن يتصف بها الأمير الذي يحكـم ولايتـه.. ويـنجح في الحفاظ عليها ضد أي اعتداء خارجي أو داخلي.. لذا أعيد القول.. أنه لو اتبع الأمير الحديث العهد الخطوات التي سبق لي أن ذكرتها بحكمة وعقل متبصـر فإنـه يبـدو عظيمـا في إمارته، ويصبح آمنًا مطمئنًا في دولته ممـا لـو كـان ذا جذور عميقة وخديمة فيها، وقد جرت العادة في مراقبـة أعمال الأمراء المحدثين أكثر من الأمراء الوارثين، وعنـدما يعترف الناس بفضائلهم فإنهم يكسبون من الناس حولهم أكثر بكثير مما لو كانوا من ذوي الدم الملكي العريـق. فالنـاس تستهويهم شئون الحاضر أكثر من شئون الماضي، وعنـدما يشعرون بالرفاهية في حاضرهم تبتهج نفوسهم فلا يعـودون يبحثون عـن أي شـيء آخـر، وسـوف يبـذلون غايـة ما في وسعهم للدفاع عن أميرهم. طالما هذا الأميـر قـادر على أن يحرز مجدا مزدوجا في إقامة دولـة جديـدة قويـة

متينة، بينما يكون عار الأمير؛ لأنه وِلَدَ أميرا وفي فمه ملعقة من ذهب، وفقد عرشه من جرّاء افتقاره إلى الفطنة والتعقل.

ويذكر التاريخ أن أولئك الحكام الذين فقـدوا مراكـزهم في إيطاليا مثل ملك نابولي ودوق ميلان وغيرهمـا لتبـين له فيهم جميعا عيب مشـترك يتعلـق بقـوتهم العسـكرية، وأن البعض منهم اكتسب عداء شعبه، والبعض الآخر رغـم حب الشعب له لم يستطع الاعتماد على حب النبلاء وولائهم وبدون هذه العيوب لا تضيع الدول، ففيليب المقدوني لم يكن يملك دولة كبيرة تقارن بعظمة روما واليونان اللتين هاجمتاه، ولكنه كان رجلاً عسكريا، وكان يـدرك الطريقـة المثلـى في تحبيب نفسه إلى الشعب والاطمئنان إلى الكبراء فـتمكن من احتمال أعباء الحرب ضد الدولتين الكبيـرتين سـنوات طويلة، وإذا كان في النهاية فقد سيطرته على بعض المـدن إلا أنه ظل قادرا على الاحتفـاظ بمملكـاتهم فتـرة طويلـة ولذلك عليهم أن لا يلوموا الحظ لأنهم فقدوها، بـل علـيهم أن يلوموا تواكلهم؛ لأنهم لم يفكروا في أيام الرخاء والسـلام بأن الأمور قد تتغير، وعندما جاءت السـاعة لـم يفكـروا إلا بالفرار بدلاً من الدفاع عـن وطـنهم واضـعين أملهـم

في الشعب يدافع عنهم وعن الوطن آملين أن إنسـانًا آخـر سينقذهم من سقطتهم وينتشلهم وقد لا يحدث هـذا الإنقـاذ، ولكن أمر حدث فإنه لن يحقق الطمأنينة لأنه لـيس أجـدى من الاعتماد على النفس، وكما يقول المثـل.. عـشْ بطـلاً ولا تمتْ جبانًا وهذا حال الأمراء الضعفاء الـذين يعتمـدون على الغير في إنقاذهم والدفاع عن وطنهم.

القضاء.. هو تلك القوة الهائلة التي تقودنا إلى قدرنا المحتوم

سيدي الأمير:

من منا لا يعرف القضاء والقدر – هاتان القوتان الهائلتان اللتان لا تنفصلان عن بعضهما، واللتان تسيطران على حياتنا اليومية.. نعم هذا القضاء.. أو هـذا القـدر الـذي يقودنـا إلى مصير محتوم.. يوجه دفة حياتنا ويسـوقنا إلـى حيـث لا ندري.

هذا القضاء. إنه قضاء الله.

وهذا القدر.. هو المكتوب علينا فـي صـفحة حياتنـا..، وليس في وسع أحد من البشر مهمـا أوتـي مـن الحكمـة أن يغيرهما.. أو يبدلهما، وليس في وسع الإنسان أن يعمـل شيئًا لرد ما حكم به القضاء، وأن عليـه أن يتـرك الأمـور تجري في مجراها وفقًا لمشيئة الحـظ..، إنـه مـن الحـق أن يعزو الإنسان إلى القدر الـتحكم فـي نصـف أعمالنـا، وأنه ترك النصف الأخر لنتحكم فيه بأنفسنا، وأود أن أشـبه القدر بالنهر الهائج.. القوي المندفع الذي يغرق في هيجانـه

واضطرابه السهول ويقلع الأشجار والأبنية، ويجتث الأرض من هذه الناحية ليقذف بها إلى تلك؛ فيهرب الناس من أمامه، ويذعن كل شيء لثورته العارمة دون أن يتمكن أحد من مقاومته، ولكنه على الرغم من هذه الطبيعة تكون له طبيعة أخرى يعود فيها إلى الهدوء، وفي وسع الناس آنذاك أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة بإقامة السدود والحواجز والأرصفة حتى إذا ما ثار النهر ثانية انسابت مياهه إلى أحد الأقنية، أو كان اندفاعه لا ينطوي على تلك الخطورة، وذلك الجنون، وهذه هي الحالة مع القدر الذي يبسط قوته عندما تنعدم الإجراءات لمقاومته، ويوجه ثورته إلى حيث لا توجد حواجز ولا سدود أقيمت في طريقه لكبح جماحه، وإذا ما تطلعت إلى إيطاليا التي كانت مسرحا لهذه التغييرات العظيمة والتي دفعت الناس إلى الإيمان بذلك الرأي، وجدت أنها بلاد لا تضم شيئًا من الحواجز والسدود مهما كان نوعه، ولو قُدرت لها الحماية بالوسائل الصحيحة كالمانيا وإسبانيا وفرنسا، فإن هذا الفيضان ما كان ليحدث تلك التغييرات التي أحدثها، أو لما وقع الفيضان على الإطلاق.

وأظن أن ما قدمته فيه الكفاية عن طرق مقاومـة القـدر بصورة عامة، وأود أن أشير هنا، أننا نرى اليوم أميرا معينًا يعيش سعيدا، ثم نراه غدا وقد تحطم دون أن نرى فيه تبـدلاً في طبيعة أو في أي شيء آخر، وإنني أعتقد أن هذا التغيير نجم من الناحية الأولى من الأسباب التي سبق أن شـرحتها، أو بكلمة أخرى؛ لأن هذا الأمير قد اعتمد على القدر، فحطمه القدر عندما دارت عجلته. وإننـا لنـرى النـاس يختلفـون في الطرق التي يتبعونها للوصول إلى أهدافهم، فمـنهم مـن يلجأ إلى الحذر، ومنهم من يختار التهوُّر، ومنهم مـن يتبـع العنف، ومنهم من يتبع المكر والدهاء، ومنهم مـن يصـبر ويصابر، وآخرون يتسرعون، ولكنهم جميعا قـد يصـلون إلى أهدافهم، وقد نرى شخصـين حـذرين يـنجح أحـدهما في مشاريعه، بينما يفشل الآخر، وكل هذا ينجم عن اختلاف طبيعة الزمن التي قد تلائم أو لا تلائـم طريقـة الإجـراء، كما نرى أيضا رجلين يعملان بنفس الأسلوب فيـنجح الأول ويفشل الثاني، وعلى هذا أيضا تتوقف التبدلات في النجـاح والفشل، ولم يحدث قط أن وجِدَ إنسـان علـى هـذا القـدر من التعقل والروية بحيث يكيـف نفسـه لجميـع العوامـل،

وإذا كان باستطاعة الإنسان أن يغير طبيعته وفقًا لتغيير الأزمنة والظروف فإن القدر لا يتغير أبدا ولا يتبدل، كذلك الحظ أيضا فإنه يتبدل ويتغير، أما الناس فيبقون ثابتين على أوضاعهم، وهم ينجحون طالما أن أساليبهم تتوافق مع الظروف، أما عندما تتعارض فإن الفشل سيكون من نصيبهم، وإني أعتقد أن التهوُّر خير من الحذر؛ ذلك لأن الحظ كالمرأة، فإن أردت السيطرة عليها فعليك أن تمتلكها بالقوة، وهي بدورها تسمح بامتلاكها للرجل الشجاع، لا لذلك الذي يقدم ببطء وحذر، وهي تميل دائما إلى الشباب؛ لأنهم أقل حذرا وأكثر عنفًا، ويمتلكون قحة وجرأة تفوق جرأة الآخرين.

وسوف تشرق الشمس وترسل أشعتها الذهبية فتضيء إيطاليا بعد ظلام حالك، وتطهرها من خطايا شعبها الآثم، وتحررها من عبودية الأجنبي على يد منقذها الجديد.. سموكم

سيدي الأمير:

وأخيرا يا مولاي بعد أن تحدّثت طويلاً عن كل المميزات التي يجب أن يتسم بها كل أمير، وبعد أن درسـت وفكـرت مليا في الأوضاع التي استقرت عليهـا إيطاليـا، وتمنيـاني بظهور أمير جديد ينتشلها من سقطتها، ويحسن أوضـاعها.. كذلك يضفي على جماهير شعبها الخير والسعادة وإذا كـان من الضروري كما قلت سابقًا لظهور قوة سـيدنا موسـى، أن يكون الإسرائيليون عبيدا في مصر، وأن يضطر الماديون أبناء فارس حتى تبدو شجاعة كورش وعظمته، وأن يكـون الأثينيون ممزقين، متفـرقين، لتتجلـى عبقريـة تيسـيوس وظهوره، فإن من الضـروري فـي هـذا الوقـت بالـذات

للاعتراف بظهور قائد عظيم إيطـالي كـي ينقـذ إيطاليـا المحبوبة.. نعم.. أصبحت إيطاليا وأصبح شعب إيطاليا يتطلع إلى ذلك الإنسان الذي يمكن أن يداوي جراحها، وأن يضـع نهاية لدمار لومبارديا ونهبها، والجشع والاغتصاب في مملكة نابولي في تسكانيا، وأن يشفي جراحها المتقيحـة منـذ أمـد طويل، وها هي إيطاليا تصلي وتبتهل إلـى الله كـل يـوم أن يبعث إليها بمن ينقذها من هذه الفظاظة البربرية والحمق الأعمى.. إنها على استعداد وتواقة إلى اللحاق بكـل رايـة، شريطة أن يكـون هنـاك مـن يحملهـا ويرفعهـا، وكـل ما ترجوه وتتمناه أن ترى أسـرتك المشـهورة تتـولى دور القيادة في حركة الإنقاذ لا سيما أن القوة تمجـدها، والحـظ حليفها، والله والكنيسة معها؛ إذ إن أسرتك الآن هـي التـي تحكم الكنيسة، ولن يكون هذا شاقًا أو صعبا، إذا تذكرت حياة الرجـال البـارزين الـذين ذكـرتهم وأعمـالهم المجيـدة، وعلى الرغم من ندرة هؤلاء الرجال وعظمـتهم، إلا أنهـم كانوا على كل حال من الرجال، ولم تتح لأي منهم الفرصـة المتاحة الآن، إذ إن مشاريعهم لم تكن أكثر عدالة ولا سهولة من مشروعك، ولم يكن الله معهم بقـدر مـا هـو معـك،

فهنا قضية عادلة، ويتمتع الشيء العـادل دائمـا بالجمـال، ويكون ضروريا، وليس في مقدرة أي قوة مهما كانت وحينما جاءت أن تدمره أو أن تقضي عليه، وهنا الإرادة العظمـى حيث توجد الإرادة تنعـدم المصـاعب، شـريطة أن تتبـع الإجراءات التي سبق أن سردتها عليـك كأمثلـة، يضـاف إلى هذا أن الله قد حقق معجـزات لا مثيـل لهـا، فالبحـار قد مهدت وفُتِحت طرقها، والماء قد انطلق نابعا من الصخرة وأمطرت السماء المن والسلوى، وساهم كل شيء في الإعداد لعظمتك شريطة أن تقوم أنت بإنجاز مـا تبقـى، ولا يقـوم الخالق بعمل كل شيء ليترك لنا أعمال لإرادتنا الحرة لتعمل، وليسمح لنا بجزء من المجد يكون من حقنا ونصيبنا، ولـيس ثمة أكرم على الإنسان البارز حـديثًا مـن إدخـال قـوانين وإجراءات جديدة، وعندما تقوم مثل هذه الأمور على أسـس سليمة، وتنطوي على العظمة فإن مبتدعها يقابل بـالاحترام والإعجاب، والمجال متسع في إيطاليـا لإدخـال أي نـوع من التنظيمات الجديدة، والفضيلة متوفرة إلـى حـد عظـيم في الأعضاء، ولا يغيب عن بال سموكم أنه بالرغم من تفوُّق الرجال الإيطاليين في القوة والمهـارة والـذكاء والفنـون،

إلا أنهم فاشلون في القيادة العسكرية؛ لأنه لم يكتشف أحد كان قادرا على اكتشاف أساليب جديدة ولا سيما وهـم يفتقـرون إلى ذلك القائد، وضعف القائد ارتقـى إلـى سـلم العظمـة عن طريق الشجاعة والحظ.

وإذا أردت سموكم أن تحذو حذو أولئك الرجال العظمـاء الذين أنقذوا بلادهم، فعليك قبل كل شيء أن تحـيط نفسـك بقواتك الخاصة؛ إذ لا جيش أكثر صدقًا وإخلاصـا وقـدرة على القتال من مثل هذا الجيش، وعلى الرغم مـن أن كـل جندي قد كان باسلاً ومحاربا، فإنهم إذا ما اتحدوا أصـبحوا أحسن وأفضل بعد أن يروا أنفسـهم وقـد قـادهم أميـرهم وأكرمهم بعطفه ورعايته؛ ولذا فمن الضروري أن تعد مثـل هذه القوات لتتمكن بقوة إيطاليا وحدها من الدفاع عن الـبلاد ضد الأجانب.

لذا من المحتم والضرورة القصـوى أن لا تضـيع هـذه الفرصة من بين يديك حتى تـتمكن إيطاليـا مـن العثـور على محررها وليس في مقدوري أن أصف ما سيجده هـذا المنقذ من حب في جميع المقاطعات التي عانـت الولايـات تحت نير الغزوات الأجنبية، ولا ما سوف يلقـاه مـن ولاء

أكيد، ودموع الشكر والعرفان.. وأن الأبواب ستفتح جميعهـا على مصاريعها أمامه، وأن الشعب بأجمعـه سـيقابله بكـل طاعة وتمجيد، ولـن يتـوانى أي رجـل إيطـالي واحـد عن الانضمام تحت لوائه، فهذه السيطرة البربرية تزكم أنف كل إنسان حر، فهل من الممكن لسموكم أن تتولى هذه المهمة متسلحا بالشجاعة والآمال وحب الشعب حتى يتاح لنا تحـت رايتكم الخفاقة أن نسمو بوطننا، وحتى يتحقق تحت سيطرتكم ما أنشده الشاعر بترارك.

إن الشجاعة ستثور أخيرا ضد الغضب الأعمـى فتعجـل من موعد المعركة.

إن من المؤكد أن القيم العريقة التي كانت تسـتفز قلـوب الإيطاليين لم تمت بعد.

* * *

وقال أيضا:

١- استثار الغضب حمية الأبطال.

٢- حملوا السلاح وسعوا للنزال.

٣- جمعت أرض الأجداد أيادي الرجال.

٤- فبلادنا نابضة ولن تكف عن القتال.

وفقك الله أيها الأمير وجعلك منقذًا لنا ومحـررا لبلادنـا الحبيبة – إيطاليا.

نيقولا مكيافيللي

تمت